# سورة النبأ

## اربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾

**فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿عَمَّ﴾: أصله حرف جر د؛خل (ما) الاستفهامية، قال حسان رحمه الله تعالى:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ(١)

والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل، ذكروا في سبب الحذف وجوهًا: **أحدها:** قال الزجاج: لأن الميم تشرك الغنة في الألف فصارا كالحرفين المتماثلين. **وثانيها:** قال الجرجاني: إنهم إذا وصفوا (ما) في استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن تكون اسمًا كقولهم: فيم وبم ولم وعلام وحتام. **وثالثها:** قالوا: حذفت الألف لاتصال (ما) بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبئ عن شدة الاتصال. **ورابعها:** السبب في هذا الحذف التخفيف في الكلام فإنه لفظ كثير التداول على اللسان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أنه سؤال، وقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ جواب السائل والمجيب هو الله تعالى، وذلك يدل على علمه بالغيب، بل بجميع المعلومات. فإن قيل: ما الفائدة في أن يذكر الجواب معه؟ قلنا: لأن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح، ونظيره: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

المسألة الثالثة: قرأ عكرمة وعيسى بن عمر: (عَمَّا) وهو الأصل، وعن ابن كثير أنه قرأ (عَمَّه) بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يُجري الوصل مجرى الوقف، وإما أن يقف ويبتدئ بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ على أن يضمر (يتساءلون) لأن ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسره.

المسألة الرابعة: (مَا) لفظة وُضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها، تقول: ما المَلَك؟ وما الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، ثم إن الشيء العظيم الذي يكون لعظمه وتفاقم مرتبته ويعجز العقل عن أن يحيط بكنهه- يبقى مجهولاً، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ (ما) وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة إحدى أسباب المجاز، فبهذا الطريق جعل (ما) دليلاً على عظمة حال ذلك

---

(١) هو الشاعر حسان بن ثابت الصحابي الجليل شاعر، الرسول ﷺ وقد تقدمت ترجمته.

المطلوب وعلو رتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢]وتقول: زيد وما زيد.

المسألة الخامسة: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضًا، كالتقابل، وقد يستعمل أيضًا في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن من بعضهم لبعض سؤال، قال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥١، ٥٢]فهذا يدل على معنى التحدث فيكون معنى الكلام: عم يتحدثون. وهذا قول الفراء.

المسألة السادسة: أولئك الذين كانوا يتساءلون من هم؟ فيه احتمالات: **الاحتمال الأول:** أنهم هم الكفار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥]الضمير في (يتساءلون)، و(هم فيه مختلفون) و(سيعلمون)، راجع إلى شيء واحد. وقوله: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ تهديد والتهديد لا يليق إلا بالكفار، فثبت أن الضمير في قوله: ﴿ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عائد إلى الكفار، فإن قيل: فما تصنع بقوله: ﴿ هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ مع أن الكفار كانوا متفقين في إنكار الحشر؟ قلنا: لا نسلّم أنهم كانوا متفقين في إنكار الحشر، وذلك لأن منهم من كان يُثبت المعاد الروحاني، وهم جمهور النصارى، وأما المعاد الجسماني فمنهم من كان شاكًّا فيه، كقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠]ومنهم من أصر على الإنكار، ويقول: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]ومنهم من كان مقرًّا به، لكنه كان منكرًا لنبوة محمد ﷺ، فقد حصل اختلافهم فيه، وأيضًا هب أنهم كانوا منكرين له لكن لعلهم اختلفوا في كيفية إنكاره، فمنهم من كان ينكره لأنه كان ينكر الصانع المختار، ومنهم من كان ينكره لاعتقاده أن إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها، والقادر المختار إنما يكون قادرًا على ما يكون ممكنًا في نفسه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿ هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ .

**والاحتمال الثاني:** أن الذين كانوا يتساءلون هم الكفار والمؤمنون، وكانوا جميعًا يتساءلون عنه، أما المسلم فليزداد بصيرة ويقينًا في دينه، وأما الكافر فعلى سبيل السخرية، أو على سبيل إيراد الشكوك والشبهات.

**والاحتمال الثالث:** أنهم كانوا يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة؟!

**أما قوله تعالى:** ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكر المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه: **أحدها:** أنه هو القيامة، وهذا هو الأقرب، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** قوله: ﴿ سَيَعۡلَمُونَ﴾ والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو القيامة.

**وثانيها:** أنه تعالى بيَّن كونه قادرًا على جميع الممكنات بقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ إلى قوله: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النبأ: ٦-١٨]وذلك يقتضي أنه تعالى إنما قدَّم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادرًا على إقامة القيامة، ولما كان الذي أثبته الله تعالى بالدليل العقلي في هذه

السورة هو هذه المسألة، ثبت أن النبأ العظيم الذي كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة. **وثالثها:** أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المطففين: ٤-٦] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٨ , ٦٧] ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه، فكان تخصيص اسم العظيم به لائقًا. **والقول الثاني:** ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] واحتج القائلون بهذا الوجه بأمرين: **الأول:** أن النبأ العظيم هو الذي كانوا يختلفون فيه وذلك هو القرآن؛ لأن بعضهم جعله سحرًا وبعضهم شعرًا، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين، فأما البعث ونبوة محمد ﷺ فقد كانوا متفقين على إنكارهما، وهذا ضعيف؛ لأنا بينا أن الاختلاف كان حاصلاً في البعث. **الثاني:** أن النبأ اسم الخبر لا اسم المخبر عنه فتفسير النبأ بالقرآن أَوْلى من تفسيره بالبعث أو النبوة؛ لأن ذلك في نفسه ليس بنبأ بل منبأ عنه، ويقوي ذلك أن القرآن سمي ذكرًا وتذكرة وذكرى وهداية وحديثًا، فكان اسم النبأ به أليق منه بالبعث والنبوة. **والجواب عنه:** أنه إذا كان اسم النبأ أليق بهذه الألفاظ فاسم العظيم أليق بالقيامة وبالنبوة، لأنه لا عظمة في الألفاظ إنما العظمة في المعاني، وللأولين أن يقولوا: إنها عظيمة أيضًا في الفصاحة والاحتواء على العلوم الكثيرة، ويمكن أن يجاب أن العظيم حقيقة في الأجسام مجاز في غيرها، وإذا ثبت التعارض بقي ما ذكرنا من الدلائل سليمًا. **القول الثالث:** أن النبأ العظيم هو نبوة محمد ﷺ، قالوا: وذلك لأنه لما بُعث الرسول عليه الصلاة والسلام جعلوا يتساءلون بينهم: ماذا الذي حدث؟ فأنزل الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وذلك لأنهم عجبوا من إرسال الله محمدًا عليه الصلاة والسلام إليهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] وعجبوا أيضًا أن جاءهم بالتوحيد كما قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فحكى الله تعالى عنهم مساءلة بعضهم بعضًا على سبيل التعجب بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

**المسألة الثانية**: في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: **أحدها:** وهو قول البصريين أن قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ كلام تام، ثم قال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ والتقدير: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ إلا أنه حذف (يتساءلون) في الآية الثانية؛ لأن حصوله في الآية الأولى يدل عليه. **وثانيها:** أن يكون قوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ استفهامًا متصلاً بما قبله، والتقدير: عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون؟ إلا أنه اقتصر على ما قبله من الاستفهام إذ هو متصل به وكالترجمة والبيان له، كما قرئ في قوله: (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا إنا لمبعوثون) بكسر الألف من غير استفهام لأن إنكارهم إنما كان للبعث، ولكنه لما ظهر الاستفهام في أول الكلام اقتصر عليه، فكذا ههنا. **وثالثها:** وهو اختيار الكوفيين أن الآية الثانية متصلة بالأولى على تقدير: لأي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم، و(عم) كأنها في المعنى (لأي شيء)، وهذا قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾

قال القفال: (كلا) لفظةٌ وضعت لرد شيء قد تقدم، هذا هو الأظهر منها في الكلام، والمعنى: ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبأ العظيم إنه باطل أو إنه لا يكون. وقال قائلون: (كلا) معناه حقًّا، ثم إنه تعالى قرر ذلك الردع والتهديد فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له، واقع لا ريب فيه، وأما تكرير الردع ففيه وجهان: الأول: أن الغرض من التكرير التأكيد والتشديد، ومعنى (ثُم) الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد. والثاني: أن ذلك ليس بتكرير. ثم ذكروا وجوهًا: أحدها: قال الضحاك: الآية الأولى للكفار والثانية للمؤمنين، أي سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وثانيها: قال القاضي: ويحتمل أن يريد بالأول سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة، ويريد بالثاني سيعلمون نفس العذاب إذا شاهدوه. وثالثها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما الله فاعل بهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر ليس كما كانوا يتوهمون من أن الله غير باعث لهم. ورابعها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما يصل إليهم من العذاب في الدنيا وكما جرى على كفار قريش يوم بدر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بما ينالهم في الآخرة.

المسألة الثالثة: جمهور القراء قرأوا بالياء المنقطة من تحت في (سَيَعْلَمُونَ) وروي بالتاء المنقطة من فوق عن ابن عامر. قال الواحدي: والأول أَوْلى؛ لأن ما تقدم من قوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣] على لفظ الغيبة، والتاء على (قل لهم: ستعلمون) وأقول: يمكن أن يكون ذلك على سبيل الالتفات، وهو ههنا متمكن حسن، كمن يقول: إن عبدي يقول كذا وكذا، ثم يقول لعبده: إنك ستعرف وبال هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر، قَدَّم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عَدَّد أنواعًا من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، ومتى ثبت هذان الأصلان وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض، ثبت لا محالة كونه تعالى قادرًا على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا هو الإشارة إلى كيفية النظم.

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا من عجائب مخلوقاته أمورًا: فأولها: قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ والمهاد مصدر، ثم ههنا احتمالات إحدها: المراد منه ههنا الممهود، أي ألم نجعل الأرض ممهودة؟ وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر، كقولك: (هذا ضَرْبُ الأمير) وثانيها: أن تكون الأرض

وُصفت بهذا المصدر، كما تقول: زيد جودٌ وكرمٌ وفضلٌ، كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة. **وثالثها:** أن تكون بمعنى ذات مهاد، وقرئ: (مهدًا)، ومعناه أن الأرض للخلق كالمهد للصبي، وهو الذي مُهد له فينوم عليه.

واعلم أنا ذكرنا في تفسير سورة البقرة عند قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ ﴾

**وثانيها: قوله تعالى:** ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي للأرض (كي) لا تميد بأهلها، فيكمل كون الأرض مهادًا بسبب ذلك، وقد تقدم أيضًا.

**وثالثها: قوله تعالى:** ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ **وفيه قولان:**

**الأول:** المراد الذكَر والأنثى، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، **والثاني:** أن المراد منه كل زوجين و(كل) متقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والأضداد، كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان، فيتعبد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر، ويتعرف حقيقة كل شيء بضده، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف، فيكون ذلك أبلغ في تعريف النعم.

**ورابعها: قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ طَعَن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا: السبات هو النوم، والمعنى: وجعلنا نومكم نومًا. واعلم أن العلماء ذكروا في التأويل وجوهًا: **أولها:** قال الزجاج: ﴿سُبَاتًا﴾ موتًا، والمسبوت: الميت، من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة، ودليله أمران: **إحداهما:** قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠] **والثاني:** أنه لما جعل النوم موتًا جعل اليقظة معاشًا، أي حياة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] وهذا القول عندي ضعيف لأن الأشياء المذكورة في هذه الآية جلائل النعم، فلا يليق الموت بهذا المكان، وأيضًا ليس المراد بكونه موتًا أن الروح انقطع عن البدن، بل المراد منه انقطاع أثر الحواس الظاهرة، وهذا هو النوم، ويصير حاصل الكلام إلى: إنا جعلنا نومكم نومًا. **وثانيها:** قال الليث: السبات: النوم شبه الغشي، يقال: سبت المريض فهو مسبوت، وقال أبو عبيدة: السبات: الغشية التي تغشى الإنسان شبه الموت، وهذا القول أيضًا ضعيف؛ لأن الغشي ههنا إن كان النوم فيعود الإشكال، وإن كان المراد بالسبات شدة ذلك الغشي فهو باطل؛ لأنه ليس كل نوم كذلك ولأنه مرض فلا يمكن ذكره في أثناء تعديد النعم.

**وثالثها:** أن السبت في أصل اللغة هو القطع، يقال: سبت الرجل رأسه يسبته سبتًا، إذا حلق شعره، وقال ابن الأعرابي في قوله: ﴿سُبَاتًا﴾ أي قطعًا. ثم عند هذا يحتمل وجوهًا: **الأول:** أن

يكون المعنى: وجعلنا نومكم نومًا متقطعًا لا دائمًا، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء، أما دوامه فمن أضر الأشياء، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله تعالى في معرض الإنعام. **الثاني:** أن الإنسان إذا تعب ثم نام، فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب، فسميت تلك الإزالة سبتًا وقطعًا، وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة، بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله، فحينئذٍ تحصل الراحة. **الثالث:** قال المبرد: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي جعلناه نومًا خفيفًا يمكنكم دفعه وقطعه، تقول العرب: رجل مسبوت، إذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه، كأنه قيل: وجعلنا نومكم نومًا لطيفًا يمكنكم دفعه، وما جعلناه غشيًا مستوليًا عليكم، فإن ذلك من الأمراض الشديدة، وهذه الوجوه كلها صحيحة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾

**وخامسها: قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قال القفال: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به، فيكون ذلك مغطيًا له، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جُعل لباسًا لهم، وهذا السبت سمي الليل لباسًا على وجه المجاز، والمراد كون الليل ساترًا لهم. وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربًا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء مالا يحب الإنسان اطلاع غيره عليه، قال المتنبي:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيلِ عِنْدِي مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ[1]

وأيضًا فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة.

**وسادسها قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ في المعاش وجهان: **أحدهما:** أنه مصدر، يقال: عاش يعيش عيشًا ومعاشًا ومعيشة وعيشة، وعلى هذا التقدير فلا بد فيه من إضمار، والمعنى: وجعلنا النهار وقت معاش. **والثاني:** أن يكون معاشًا مَفْعلاً وظرفًا للتعيش، وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار، ومعنى كون النهار معاشًا أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار لا في الليل.

**وسابعها: قوله تعالى:** ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي سبع سموات شدادًا، جمع شديدة يعني محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان، لا فطور فيها ولا فروج، ونظيره: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ

(١) المتنبي تقدمت ترجمته.

سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] فإن قيل: لفظ البناء يستعمل في أسافل البيت والسقف في أعلاه فكيف قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾؟ قلنا: البناء يكون أبعد من الآفة والانحلال من السقف، فذكر قوله: ﴿وَبَنَيْنَا﴾ إشارة إلى أنه وإن كان سقفًا لكنه في البعد عن الانحلال كالبناء، فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة.

## قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾

**وثامنها:** قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ كلام أهل اللغة مضطرب في تفسير الوهاج، فمنهم من قال: الوهج مجمع النور والحرارة، فبيَّن الله تعالى أن الشمس بالغة إلى أقصى الغايات في هذين الوصفين، وهو المراد بكونها وهاجًا، وروى الكلبي عن ابن عباس أن الوهاج مبالغة في النور فقط، يقال للجوهر إذا تلألأ: (توهج)، وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال في النور، ومنه قول الشاعر يصف النور:

نُوَّارُهَا مُتَبَاهِجٌ يَتَوَهَّجُ

وفي كتاب الخليل: الوهج، حر النار والشمس. وهذا يقتضي أن الوهاج هو البالغ في الحر. واعلم أن أي هذه الوجوه إذا ثبت فالمقصود حاصل.

**وتاسعها: قوله:** ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أما المعصرات ففيها قولان: **الأول:** وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس، وقول مجاهد، ومقاتل والكلبي وقتادة: إنها الرياح التي تثير السحاب. ودليله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] فإن قيل: على هذا التأويل كان ينبغي أن يقال: وأنزلنا بالمعصرات. قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** أن المطر إنما ينزل من السحاب، والسحاب إنما يثيره الرياح، فصح أن يقال: هذا المطر إنما حصل من تلك الرياح، كما يقال: هذا من فلان، أي من جهته وبسببه. **الثاني:** أن (مِن) ههنا بمعنى الباء والتقدير، وأنزلنا بالمعصرات، أي بالرياح المثيرة للسحاب. ويروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعكرمة أنهم قرأوا: (وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ) وطعن الأزهري في هذا القول، وقال الأعاصير من الرياح ليست من رياح المطر، وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الثجاج. **وجوابه:** أن الإعصار ليست من رياح المطر، فلمَ لا يجوز أن تكون المعصرات من رياح المطر؟

**القول الثاني:** وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار أبي العالية والربيع والضحاك أنها السحاب، وذكروا في تسمية السحاب بالمعصرات وجوهًا. **أحدها:** قال المؤرج: المعصرات: السحائب بلغة قريش. **وثانيها:** قال المازني: يجوز أن تكون المعصرات هي السحائب ذوات الأعاصير، فإن السحائب إذا عصرتها الأعاصير لا بد وأن ينزل المطر منها. **وثالثها:** أن المعصرات هي السحائب التي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كقولك: (أجز الزرع) إذا حان له أن يُجَز، ومنه (أعصرت الجارية) إذا دنت أن تحيض.

وأما الثجاج فاعلم أن الثج شدة الانصباب، يقال: مطر ثجاج ودم ثجاج، أي شديد الانصباب.

واعلم أن الثج قد يكون لازمًا، وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا، وقد يكون متعديًا بمعنى الصب، وفي الحديث «أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ» أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهَدْي، وكان ابن عباس مثجًا، أي يثج الكلام ثجًا في خطبته، وقد فسروا الثجاج في هذه الآية على الوجهين: قال الكلبي ومقاتل وقتادة: الثجاج ههنا المتدفق المنصب. وقال الزجاج: معناه الصباب كأنه يثج نفسه أي يصب وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به.

قوله تعالى: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾

**قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، في الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** كل شيء نبت من الأرض فإما أن لا يكون له ساق وإما أن يكون، فإن لم يكن له ساق فإما أن يكون له أكمام وهو الحب وإما أن لا يكون له أكمام وهو الحشيش وهو المراد ههنا بقوله: ﴿وَنَبَاتًا﴾ وإلى هذين القسمين الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] وأما الذي له ساق فهو الشجر فإذا اجتمع منها شيء كثير سُميت جنة، فثبت بالدليل العقلي انحصار ما ينبت في الأرض في هذه الأقسام الثلاثة، وإنما قَدَّم الله تعالى الحب لأنه هو الأصل في الغذاء، وإنما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وإنما أخر الجنات في الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية.

**المسألة الثانية:** اختلفوا في (ألفافًا) فذكر صاحب (الكشاف) أنه لا واحد له كالأوزاع والأخياف، والأوزاع: الجماعات المتفرقة، والأخياف: الجماعات المختلطة. وكثير من اللغويين أثبتوا له واحدًا، ثم اختلفوا فيه: فقال الأخفش والكسائي: واحدها (لِف) بالكسر، وزاد الكسائي: (لُف) بالضم، وأنكر المبرد الضم، وقال: بل واحدها لفاء. وجمعها لف، وجمع لف ألفاف، وقيل: يحتمل أن يكون لفيف كشريف وأشراف، نقله القفال رحمه الله.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي ملتفة، والمعنى أن كل جنة فإن ما فيها من الشجر تكون مجتمعة متقاربة، ألا تراهم يقولون: (امرأة لفاء) إذا كانت غليظة الساق مجتمعة اللحم يبلغ من تقاربه أن يتلاصق.

**المسألة الثالثة:** كان الكعبي من القائلين بالطبائع، فاحتج بقوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ وقال: إنه يدل على بطلان قول من قال: إن الله تعالى لا يفعل شيئًا بواسطة شيء آخر.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾**

اعلم أن التسعة التي عَدَّدها الله تعالى نظرًا إلى حدوثها في ذواتها وصفاتها، ونظرًا إلى إمكانها في ذواتها وصفاتها تدل على القادر المختار، ونظرًا إلى ما فيها من الإحكام والإتقان

تدل على أن فاعلها عالم، ثم إن ذلك الفاعل القديم يجب أن يكون علمه وقدرته واجبين، إذ لو كانا جائزين لافتقر إلى فاعل آخر ويلزم التسلسل وهو محال، وإذا كان العلم والقدرة واجبين وجب تعلقهما بكل ما صح أن يكون مقدورًا ومعلومًا وإلا لافتقر إلى المخصص وهو محال، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات، وقد ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة في الجسمية، فكل ما صح على واحد منها صح على الآخر، فكما يصح على الأجسام السلفية الانشقاق والانفطار والظلمة وجب أن يصح ذلك على الأجسام، وإذا ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة والعلم، ثبت أنه تعالى قادر على تخريب الدنيا، وقادر على إيجاد عالم آخر، وعند ذلك ثبت أن القول بقيام القيامة ممكن عقلاً، وإلى هنا يمكن إثباته بالعقل، فأما ما وراء ذلك من وقت حدوثها وكيفية حدوثها فلا سبيل إليه إلا بالسمع، ثم إنه تعالى تكلم في هذه الأشياء بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ ثم إنه تعالى ذكر بعض أحوال القيامة:

**فأولها:** قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ والمعنى أن هذا اليوم كان في تقدير الله وحكمه حدًّا تؤقت به الدنيا، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه، أو كان ميقاتًا لما وعد الله من الثواب والعقاب، أو كان ميقاتًا لاجتماع كل الخلائق في فصل الحكومات وقطع الخصومات.

## قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾

**وثانيها:** قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

اعلم أن ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان، وهذا النفخ هو النفخة التي عندها يكون الحشر، والنفخ في الصور فيه قولان: **أحدهما:** أن الصور جمع الصورة، فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الأرواح في الأجساد. **والثاني:** أن الصور عبارة عن قرن. ينفخ فيه. وتمام الكلام في الصور وما قيل فيه قد تقدم في سورة الزمر. وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ معناه أنهم يأتون ذلك المقام فوجًا فوجًا حتى يتكامل اجتماعهم. قال عطاء: كل نبي يأتي مع أمته. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وقيل: جماعات مختلفة، روى صاحب (الكشاف) عن معاذ أنه سأل رسول الله ﷺ عنه، فقال عليه السلام: «**يَا مُعَاذُ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأُمُورِ**»، ثُمَّ أَرْسَلَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: «**يُحْشَرُ عَشَرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي، بَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ أَرْجُلُهُمْ فَوْقَ وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ، وَبَعْضُهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضُغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مُدَلَّاةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ يَسِيلُ الْقَيحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، يَتَقَذَّرُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجِيَفِ، وَبَعْضُهُمْ مُلْبَسُونَ جِبَابًا سَابِغَةً مِنْ قَطِرَانٍ لَازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ. فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ فَالْقَتَّاتُ مِنَ النَّاسِ. وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَهْلُ السُّحْتِ. وَأَمَّا**

الْمُنكَّسُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا، وَأَمَّا الْعُمْيُ فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْحُكْمِ. وَأَمَّا الصُّمُّ وَالْبُكْمُ فَالْمُعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقُصَّاصُ الَّذِينَ يُخَالِفُ قَوْلُهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ. وَأَمَّا الْمُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنَ النَّارِ فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السُّلْطَانِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجِيَفِ فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَمَنَعُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجِبَابَ فَأَهْلُ الْكِبْرِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ»(١).

## قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾

**وثالثها قوله تعالى:** ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾

قرأ عاصم وحمزة والكسائي (فُتحت) خفيفة والباقون بالتثقيل، والمعنى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة، قال القاضي: وهذا الفتح هو معنى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب. وأقول: هذا ليس بقوي لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر، فربما كانت السماء أبوابًا، ثم تُفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر، بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية. **فإن قيل:** قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ يفيد أن السماء بكليتها تصير أبوابًا، فكيف يعقل ذلك؟ **قلنا: فيه وجوه:**

**أحدها:** أن تلك الأبواب لما كثرت جدًّا صارت كأنها ليست إلا أبوابًا مفتحة، كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي كأن كلها صارت عيونًا تتفجر.

**وثانيها:** قال الواحدي: هذا من باب تقدير حذف المضاف، والتقدير: فكانت ذات أبواب.

**وثالثها:** أن الضمير في قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ عائد إلى مضمر والتقدير: فكانت تلك المواضع المفتوحة أبوابًا لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

---

(١) موضوع: أورده صاحب الكشاف في (تفسيره) (٧/ ٢١٩) وقال الألباني في (الضعيفة) (٦٤٤٤). موضوع: أورده السيوطي في (الدر المنثور) (٦/ ٣٠٧) ساكتًا عليه- كعادته غالبًا- من رواية ابن مردويه عن البراء بن عازب، أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله! ما قول الله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨]؟ فقال: . . . . فذكره بطوله. وعزاه الحافظ الزيعلي في (تخريج أحاديث الكشاف) (ص ٦٩٢) من طريقين: عن محمد بن زهير عن محمد بن المهتدي عن حنظلة السدوسي عن الراء بن عازب، ومن روايتهما ذكره الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) أيضًا (١٤/ ١٨١/ ٢٦٧) تبعًا للزيلعي. وسكتا عن إسناده وهو إسناده واهٍ: حنظلة السدوسي: ضعيف؛ لاختلاطه وروايته الأعاجيب والمناكير. وهو مترجم في (التهذيب) ومن دونه لم أجد من ترجمهما، إلا أن الحافظ أورده في ترجمة محمد بن زهير من (اللسان) الذي قال فيه: (تابعي أرسل حديثًا، عنه وهيب بن الورد، مجهول). زاد الحافظ فقال: (وأظنه الذي روى الحديث الظاهر الوضع في البعث المذكور عند الثعلبي في تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، روه عن محمد بن المفيد عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء) فأقول: إني أستبعد جدًّا (أن يكون) محمد بن زهير الراوي لهذا الحديث هو ذاك التابعي المجهول، كيف وبينه وبين البراء تابعي، وتابع تابعي؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

**ورابعها:** قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله، وهو أن أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

**والحالة الثانية لها:** أن تصير ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

**والحالة الثالثة:** أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، وهو قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝﴾ [الواقعة: ٤-٦].

**والحالة الرابعة:** أن تُنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتُنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

**والحالة الخامسة:** أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعًا في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسامًا جامدة وهي في الحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها (صيرها) مندكة متفتتة، وهي قوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النحل: ٨٨] ثم بيَّن أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

**الحالة السادسة:** أن تصير سرابًا، بمعنى لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئًا، كما أن من يرى السراب من بُعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئًا، والله أعلم.

واعلم أن الأحوال المذكورة إلى ههنا هي: أحوال عامة، ومن ههنا يصف أهوال جهنم وأحوالها.

## قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝﴾

**فأما قوله تعالى:** ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝﴾ **ففيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** قرأ ابن يعمر: (أن جهنم) بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة، بأن جهنم كانت مرصادًا للطاغين، كأنه قيل كان كذلك لإقامة الجزاء.

**المسألة الثانية:** كانت مرصادًا، أي في علم الله تعالى، وقيل: صارت، وهذان القولان نقلهما القفال رحمه الله تعالى، وفيه وجه ثالث ذكره القاضي، فإنا إذا فسرنا المرصاد بالمرتقِب، أفاد ذلك أن جهنم كانت كالمنتظرة لمقدومهم من قديم الزمان، وكالمستدعية والطالبة لهم.

**المسألة الثالثة:** في المرصاد قولان: **أحدهما:** أن المرصاد اسم للمكان الذي يُرصد فيه،

كالمضمار اسم للمكان الذي يُضمر فيه الخيل، والمنهاج اسم للمكان الذي يُنهج فيه، وعلى هذا الوجه فيه احتمالان: **أحدهما:** أن خزنة جهنم يرصدون الكفار. **والثاني:** أن مجاز المؤمنين وممرهم كان على جهنم؛ لقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم، ويرصدونهم عندها.

**القول الثاني:** أن المرصاد مفعال من الرصد، وهو الترقب، بمعنى أن ذلك يكثر منه، والمفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار والمطعان، قيل: إنها ترصد أعداء الله وتشق عليهم، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] قيل ترصد كل كافرة ومنافق.

والقائلون بالقول الأول استدلوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ولو كان المرصاد نعتًا لوجب أن يقال: إن ربك لمرصاد.

المسألة الرابعة: دلت الآية على أن جهنم كانت مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي معدة، وإذا كان كذلك كانت الجنة أيضًا كذلك؛ لأنه لا قائل بالفرق.

قوله تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾

**وثانيها:** قوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ وفيه وجهان: إن قلنا: (إنه مرصاد للكفار فقط) كان قوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ من تمام ما قبله، والتقدير إن جهنم كانت مرصادًا للطاغين، ثم قوله: ﴿مَـَٔابًا﴾ بدل من قوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ وإن قلنا بأنها كانت مرصادًا مطلقًا للكفار وللمؤمنين، كان قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١] كلامًا تامًا، وقوله: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ كلام مبتدأ، كأنه قيل: إن جهنم مرصاد للكل، ومآب للطاغين خاصة. ومن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله (مرصادًا) أما من ذهب إلى القول الثاني وقف عليه، ثم يقول: المراد بالطاغين من تكبر على ربه وطغى في مخالفته ومعارضته، وقوله: ﴿مَـَٔابًا﴾ أي مصيرًا ومقرًا.

**وثالثها:** قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن جهنم مآب للطاغين، بَيَّن كمية استقرارهم هناك، فقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾، **وههنا مسائل:**

**المسألة الأولى:** قرأ الجمهور: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ وقرأ حمزة: (لبثين) وفيه وجهان، قال الفراء: هما بمعنى واحد يقال: لابث ولبث، مثل طامع، وطمع، وفاره، وفره، وهو كثير. وقال صاحب الكشاف: واللبث أقوى لأن اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال: لبث إلا لمن شأنه اللبث، وهو أن يستقر في المكان، ولا يكاد ينفك عنه.

المسألة الثانية: قال الفراء: أصل الحقب من الترادف والتتابع، يقال: أحقب، إذا أردف، ومنه الحقيبة، ومنه كل من حمل وزرًا، فقد احتقب، فيجوز على هذا المعنى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي دهورًا متتابعة يتبع بعضها بعضًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] يحتمل سنين متتابعة إلى أن أبلغ أو آنس، واعلم أن الأحقاب، واحدها

حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة، والحقب السنون، واحدتها حقبة، وهي زمان من الدهر لا وقت له، ثم نُقل عن المفسرين فيه وجوه: **أحدها**: قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾: الحقب الواحد بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يومًا، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا. ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعًا. **وثانيها**: سأل هلال الهجري عليًّا عليه السلام فقال: الحقب مائة سنة، والسنة اثنا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم ألف سنة. **وثالثها**: وقال الحسن: الأحقاب لا يدري أحد ما هي، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون: فإن قيل: قوله أحقابًا وإن طالت إلا أنها متناهية، وعذاب أهل النار غير متناهٍ، بل لو قال (لابثين فيها الأحقاب) لم يكن هذا السؤال واردًا، ونظير هذا السؤال قوله في أهل القبلة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هو: ١٠٨] قلنا: الجواب من وجوه: **الأول**: أن لفظ (الأحقاب) لا يدل على مضي حقب له نهاية، وإنما الحقب الواحد متناهٍ، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر، وهكذا إلى الأبد. **والثاني**: قال الزجاج: المعنى أنهم يلبثون فيها أحقابًا لا يذوقوق في الأحقاب بردًا ولا شرابًا، فهذه الأحقاب توقيت لنوع من العذاب وهو أن لا يذوقوا بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون بعد الأحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. **وثالثها**: هب أن قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾ يفيد التناهي، لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم، والمنطوق دل على أنهم لا يخرجون، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] ولا شك أن المنطوق راجح، وذكر صاحب (الكشاف) في الآية وجهًا آخر، وهو أن يكون أحقابًا من (حقب عامنا) إذا قل مطره وخيره، و(حقب فلان) إذا أخطأه الرزق، فهو حقب وجمعه أحقاب، فينتصب حالاً عنهم بمعنى لابثين فيها حقبين مجدبين، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤] تفسير له.

**قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾**

**ورابعها**: قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إن اخترنا قول الزجاج كان قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ متصلاً بما قبله، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى الأحقاب، وإن لم نقل به كان هذا كلامًا مستأنفًا مبتدأ، والضمير في قوله عائدًا إلى جهنم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿بَرْدًا﴾ وجهان: **الأول**: أنه البرد المعروف، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم، والحاصل أنهم لا يجدون هواء باردًا، ولا ماء باردًا. **والثاني**: البرد ههنا النوم، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي، قال الفراء:

وإنما سُمي النوم بردًا لأنه يبرد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم. وأنشد أبو عبيدة[(١)] والمبرد في بيان أن المراد النوم قول الشاعر:

بَرُدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي عَنْهَا وَعَنْ رَشَفَاتِهَا الْبَرْدُ

يعني النوم، قال المبرد: ومن أمثال العرب: (منع البرد البرد) أي أصابني من البرد ما منعني من النوم. واعلم أن القول الأول أَوْلى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب، والقائلون بالقول الثاني تمسكوا في إثباته بوجهين: **الأول:** أنه لا يقال: ذقت البرد ويقال: ذقت النوم. **الثاني:** أنهم يذوقون برد الزمهرير، فلا يصح أن يقال: إنهم ما ذاقوا بردًا. وهب أن ذلك البرد برد تأذوا به، ولكن كيف كان، فقد ذاقوا البرد، والجواب عن الأول: كما أن ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم أيضًا مجاز، ولأن المراد من قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي لا يستنشقون فيها نفَسًا باردًا، ولا هواء باردًا، والهواء المستنشق ممره الفم والأنف فجاز إطلاق لفظ الذوق عليه. والجواب عن الثاني: أنه لم يقل (لا يذوقون فيها البرد) بل قال: لا يذوقون فيها بردًا واحدًا، وهو البرد الذي ينتفعون به ويستريحون إليه.

**المسألة الثالثة:** ذكروا في الحميم أنه الصفر المذاب. وهو باطل بل الحميم الماء الحار المغلي جدًا.

**المسألة الرابعة:** ذكروا في الغساق وجوهًا:

**أحدها:** قال أبو معاذ: كنت أسمع مشايخنا يقولون: الغساق فارسية معربة، يقولون للشيء الذي يتقذرونه خاشاك.

**وثانيها:** أن الغساق هو الشيء البارد الذي لا يطاق، وهو الذي يسمى بالزمهرير.

**وثالثها:** الغساق ما يسيل من أعين أهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة، وفي كتاب الخليل: غسقت عينه، تغسق غسقًا وغساقًا.

**ورابعها:** الغساق هو المنتن، ودليله ما روي أنه عليه السلام قال: «**لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنَ الْغَسَّاقِ يُهْرَاقُ عَلَى الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا**»[(٢)].

---

(١) أبو عبيدة تقدمت ترجمته.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٧٠٦) حديث رقم (٢٥٨٤) من طريق رشدين بن سعد، حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به وقال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشيدين بن سعد في رشدين وقال وقد تُكلم فيه من قِبل حفظه. وأحمد في (مسنده) (٣/ ٨٣) حديث رقم (١١٨٠٣) من طريق ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به. والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٤٤) حديث رقم (٨٧٧٩) من طريق عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٥٢٢) حديث رقم (١٣٨١) من طريق ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أنا الهيثم حدثه عن أبي سعيد... به والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٢٢٨) من طريق ابن وهب قال: حدثني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري... به، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

وخامسها: أن الغاسق هو المظلم قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] فيكون الغساق شرابًا أسود مكروهًا يستوحش كما يستوحش الشيء المظلم.

إذا عرفت هذا فنقول: إن فسرنا الغساق بالبارد كان التقدير: لا يذوقون فيها بردًا إلا غساقًا ولا شرابًا إلا حميمًا، إلا أنهما جُمعًا لأجل انتظام الآي، ومثله من الشعر قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي[1]

والمعنى كأن قلوب الطير رطبًا العناب ويابسًا الحشف البالي. أما إن فسرنا الغساق بالصديد أو بالنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحميم والغساق راجعًا إلى البرد والشراب معًا، وأن يكون مختصًا بالشراب فقط.

**أما الاحتمال الأول:** فهو أن يكون التقدير: لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في الحميم والصديد المنتن.

**وأما الاحتمال الثاني:** فهو أن يكون التقدير: لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ في السخونة أو الصديد المنتن، والله أعلم بمراده، فإن قيل: الصديد لا يُشرب فكيف استثنى من الشراب؟ قلنا: إنه مائع فأمكن أن يُشرب في الجملة، فإن ثبت أنه غير ممكن كان ذلك استثناء من غير الجنس ووجهه معلوم.

المسألة الخامسة: قرأ حمزة والكسائي وعاصم من رواية حفص عنه (غسَّاقًا) بالتشديد فكأنه فَعَّال بمعنى سيال، وقرأ الباقون بالتخفيف مثل شراب، والأول نعت والثاني اسم.

واعلم أنه تعالى لما شرح أنواع عقوبة الكفار بيَّن فيما بعده أنه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ وفي المعنى وجهان: **الأول:** أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديدة، فيكون العقاب ﴿وِفَاقًا﴾ للذنب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] **والثاني:** أنه ﴿وِفَاقًا﴾ من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ولم ينقص عنه، وذكر النحويون فيه وجوهًا: **أحدها:** أن يكون الوفاق والموافق واحدًا في اللغة، والتقدير: جزاء موافقًا. **وثانيها:** أن يكون نصبًا على المصدر والتقدير: جزاء وافق أعمالهم ﴿وِفَاقًا﴾ **وثالثها:** أن يكون وصف بالمصدر كما يقال: فلان (فضلٌ وكرمٌ) لكونه كاملاً في ذلك المعنى، كذلك ههنا لما كان ذلك الجزاء كاملاً في كونه على وفق الاستحقاق وُصف الجزاء بكونه ﴿وِفَاقًا﴾ **ورابعها:** أن يكون بحذف المضاف والتقدير: جزاء ذا وفاق. وقرأ أبو حيوة: (وفَّاقًا) فَعَّال من الوفق، فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب البالغ في الشدة الغير المتناهي بحسب المدة ﴿وِفَاقًا﴾ للإتيان بالكفر لحظة واحدة؟! وأيضًا فعلى قول أهل السنة إذا كان الكفر واقعًا بخلق الله وإيجاده، فكيف يكون هذا وفاقًا له؟ وأما على مذهب المعتزلة فكان علم الله بعدم إيمانهم حاصلاً ووجود إيمانهم منافٍ بالذات لذلك العلم، فمع قيام أحد المتنافيين كان التكليف بإدخال المنافي الثاني في الوجود ممتنعًا لذاته وعينه، ويكون

(١) تقدمت ترجمة امرئ القيس.

تكليفًا بالجمع بين المتنافيين، فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم وفاقًا لمثل هذا الجرم؟ قلنا: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

واعلم أنه تعالى لما بيَّن على الإجمال أن ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم شرح أنواع جرائمهم، وهي بعد ذلك نوعان:

## قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾

**أولهما: قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ **وفيه سؤالان:**

**الأول:** وهو أن الحساب شيء شاق على الإنسان، والشيء الشاق لا يقال فيه إنه يرجى بل يجب أن يقال: إنهم كانوا لا يخشون حسابًا. والجواب من وجوه: **أحدها:** قال مقاتل وكثير من المفسرين: قوله ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ معناه لا يخافون، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] **وثانيها:** أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين. **وثالثها:** أن الرجاء ههنا بمعنى التوقع لأن الراجي للشيء متوقع له، إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء فسُمي الجنس باسم أشرف أنواعه. **ورابعها:** أن في هذه الآية تنبيهًا على أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف، وذلك لأن للعبد حقًّا على الله تعالى بحكم الوعد في جانب الثواب، ولله تعالى حق على العبد في جانب العقاب، والكريم قد يسقط حق نفسه، ولا يُسقط ما كان حقًّا لغيره عليه، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى في الحساب، فلهذا السبب ذكر الرجاء، ولم يذكر الخوف.

**السؤال الثاني:** أن الكفار كانوا قد أتوا بأنواع من القبائح والكبائر، فما السبب في أن خص الله تعالى هذا النوع من الكفر بالذكر في أول الأمر؟ الجواب: لأن رغبة الإنسان في فعل الخيرات وفي ترك المحظورات إنما تكون بسبب أن ينتفع به في الآخرة، فمن أنكر الآخرة، لم يُقْدم على شيء من المستحسنات، ولم يحجم عن شيء من المنكرات، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تنبيه على أنهم فعلوا كل شر وتركوا كل خير.

## قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾

**والنوع الثاني من قبائح أفعالهم:** قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ اعلم أن للنفس الناطقة الإنسانية قوتين نظرية وعملية، وكمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ولذلك قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣] إشارة إلى كمال القوة النظرية ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية، فههنا بين الله تعالى رداءة حالهم في الأمرين، أما في القوة العملية فنبه على فسادها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧] أي كانوا مُقْدمين على جميع القبائح والمنكرات، وغير راغبين في شيء

من الطاعات والخيرات. وأما في القوة النظرية فنبه على فسادها بقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ أي كانوا منكرين بقلوبهم للحق ومصرين على الباطل.

وإذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر أنه تعالى بيَّن أنهم كانوا قد بلغوا في الرداءة والفساد إلى حيث يستحيل عقلاً وجود ما هو أَزْيد منه، فلما كانت أفعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة، فثبت بهذا صحة ما قدمه في قوله: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦] فما أعظم لطائف القرآن مع أن الأدوار العظيمة قد استمرت، ولم ينتبه لها أحد، فالحمد لله حمدًا يليق بعلو شأنه وبرهانه على ما خص هذا الضعيف بمعرفة هذه الأسرار.

**واعلم أن قوله تعالى:** ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ يدل على أنهم كَذَّبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن، وذلك يدل على كمال حال القوة النظرية في الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل، وقوله: ﴿كِذَّابٗا﴾ أي تكذيبًا وفِعَّال من مصادر التفعيل، وأنشد الزجاج[1]:

لَقَدْ طَالَ مَا رَيَّثْتَنِي عَنْ صحابتي وَعَنْ حِوَجٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَائِنَا

من قضَّيت قضَّاء، قال الفراء: هي لغة فصيحة يمانية، ونظيره خرَّقت القميص خِرَّاقًا، وقال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الحلو أحب إليك أم العِصَّار؟ وقال صاحب (الكشاف): كنت أفسر آية فقال بعضهم: لقد فسرتها فِسَّارًا ما سُمع به. وقرئ بالتخفيف وفيه وجوه: **أحدها:** أنه مصدر كَذَّب بدليل قوله:

فَصَدَقْتُهَا أَوْ كَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

وهو مثل قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابًا. **وثانيها:** أن ينصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب. **وثالثها:** أن يجعل الكِذَاب بمعنى المكاذبة، فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة. أو كذبوا بها مكاذبين. لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة. وقرئ أيضًا كذلك وهو جمع كاذب، أي كذبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال رجل كذاب، كقولك حسان وبخال، فيُجعل صفة لمصدر كذبوا، أي تكذيبًا كذابًا مفرطًا كذبه.

## قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾

واعلم أنه تعالى لما بيَّن أن فساد حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية بلغ إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات بين أن تفاصيل تلك الأحوال في كميتها وكيفيتها معلومة له، وقدر ما يستحق عليه من العقاب معلوم له، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾، **وفيه مسائل:**

---

(١) تقدمت ترجمة الزجاج.

المسألة الأولى: قال الزجاج: (كل) منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ والمعنى: وأحصينا كل شيء. وقرأ أبو السمال: (وكلٌّ) بالرفع على الابتداء.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي علمنا كل شيء كما هو علمًا لا يزول ولا يتبدل، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] واعلم أن هذه الآية تدل على كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، واعلم أن مثل هذه الآية لا تقبل التأويل، وذلك لأنه تعالى ذكر هذا تقريرًا لما ادعاه من قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] كأنه تعالى يقول: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وعالم بجهات تلك الأفعال وأحوالها واعتباراتها التي لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلا قدر ما يكون وفاقًا لأعمالهم. ومعلوم أن هذا القدر إنما يتم لو ثبت كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كان كافرًا قطعًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: تقديره أحصيناه إحصاء، وإنما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة؛ لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم، ولهذا قال عليه السلام: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»[1] فكأنه تعالى قال: وكل شيء أحصيناه إحصاء مساويًا في القوة والثبات والتأكيد للمكتوب، فالمراد من قوله كتابًا تأكيد ذلك الإحصاء والعلم، واعلم أن هذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر، فإن المكتوب يقبل الزوال، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال لأنه واجب لذاته. **القول الثاني**: أن يكون قوله (كتابًا) حالاً في معنى مكتوبًا والمعنى: وكل شيء أحصيناه حال كونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ. كقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] أو في صحف الحفظة.

## ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال العقاب أولاً، ثم ادعى كونه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] ثم بين تفاصيل أفعالهم القبيحة، وظهر صحة ما ادعاه أولاً من أن ذلك العقاب كان ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:

---

(١) صحيح موقوف: أخرجه الدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من رخص في كتابة العلم) (١/ ١٢٢) حديث رقم (٤٩٧) والبغوي في (شرح السنة) (١/ ٢٣٤) جزء من حديث رقم (١٣٧) من حديث عمر بن الخطاب، والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٠٦) من طريق عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان عن عمر بن الخطاب... به. أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٧٠) حديث رقم (٦٣٧) من طريق عبد الله بن الحسين بن جابر مولى عقيل بن أبي طالب حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك... به. وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٩/ ٢١٢) حديث رقم (١٨٠٩) من طريق عبد الله بن سعد أبو سعد الأنصاري حدثنا إسماعيل بن أويس... به. والخطيب في (أخلاق الراوي) (١/ ٤٩٩) حديث رقم (٤٤٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس... به. وأورده ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٨٦) وقال: هذا حديث لا يصح مرفوعًا وجاء بالطرق كلها ووصفها وصحح وقفه.

٢٦] لا جرم أعاد ذكر العقاب، وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ والفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم، فهذا الفاء أفاد عين فائدة قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦].

**المسألة الرابعة**: هذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه: **أحدها**: قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ وكلمة (لن) للتأكيد في النفي. **وثانيها**: أنه في قوله: ﴿كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبا: ٢٧] ذكرهم بالمغايبة وفي قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة، وهذا يدل على كمال الغضب. **وثالثها**: أنه تعالى عَدَّد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عَدَّد فضائحهم، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «**هَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ مَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، كُلَّمَا اسْتَغَاثُوا مِنْ نَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ أُغِيثُوا بِأَشَدَّ مِنْهُ**»، **بقي في الآية سؤالان:**

**السؤال الأول**: أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] فهنا لما قال لهم: ﴿فَذُوقُوا﴾ فقد كلمهم؟ الجواب: قال أكثر المفسرين: تقدير الآية: فيقال لهم: فذوقوا، ولقائل أن يقول: على هذا الوجه لا يليق بذلك القائل أن يقول: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ بل هذا الكلام لا يليق إلا بالله، والأقرب في الجواب أن يقال: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ أي ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، فإن تخصيص العموم غير بعيد لاسيما عند حصول القرينة، فإن قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ إنما ذكره لبيان أنه تعالى لا ينفعهم ولا يقيم لهم وزنًا، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب.

**السؤال الثاني**: دلت هذه الآية على أنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبدًا، فتلك الزيادة إما أن يقال: إنها كانت مستحقة لهم أو غير مستحقة، فإن كانت مستحقة لهم كان تركها في أول الأمر إحسانًا، والكريم إذا أسقط حق نفسه، فإنه لا يليق به أن يسترجعه بعد ذلك، وأما إن كانت تلك الزيادة غير مستحقة كان إيصالها إليهم ظلمًا وإنه لا يجوز على الله. الجواب: كما أن الشيء يؤثر بحسب خاصية ذاته، فكذا إذا دام ازداد تأثيره بحسب ذلك الدوام، فلا جرم كلما كان الدوام أكثر كان الإيلام أكثر، وأيضًا فتلك الزيادة مستحقة، وتركها في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط، والله أعلم بما أراد.

**واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد الأخيار وهو أمور:**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾

**أولها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أما المتقي فقد تقدم تفسيره في مواضع كثيرة و ﴿مَفَازًا﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى فوزًا وظفرًا بالبغية، ويحتمل أن يكون موضع فوز، والفوز يحتمل أن يكون المراد منه فوزًا بالمطلوب، وأن يكون المراد منه فوزًا بالنجاة من العذاب، وأن

يكون المراد مجموع الأمرين، وعندي أن تفسيره بالفوز بالمطلوب أَوْلى من تفسيره بالفوز بالنجاة من العذاب، ومن تفسيره بالفوز بمجموع الأمرين، أعني النجاة من الهلاك والوصول إلى المطلوب، وذلك لأنه تعالى فسر المفاز بما بعده وهو قوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ فوجب أن يكون المراد من المفاز هذا القدر. فإن قيل: الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة، فلمَ أهمل الأهم وذكر غير الأهم؟ قلنا: لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز باللذة والخير، أما الفوز باللذة والخير فيستلزم الخلاص من الهلاك، فكان ذكر هذا أَوْلى.

**وثانيها:** قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ والحدائق جمع حديقة، وهي بستان محوط عليه، من قولهم: أحدقوا به، أي أحاطوا به، والتنكير في قوله: ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ يدل على تعظيم حال تلك الأعناب.

**وثالثها:** قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ كواعب جمع كاعب وهي النواهد التي تكعبت ثديهن وتفلكت، أي يكون الثدي في النتوء كالكعب والفلكة.

**ورابعها:** قوله تعالى: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾﴾ **وفي الدهاق أقوال:**

**الأول:** -وهو قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد- ﴿دِهَاقٗا﴾ أي ممتلئة، دعا ابن عباس غلامًا له فقال: اسقنا دهاقًا. فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس: هذا هو الدهاق. قال عكرمة، ربما سمعت ابن عباس يقول: اسقنا وادهق لنا.

**القول الثاني:** ﴿دِهَاقٗا﴾ أي متتابعة، وهو قول أبي هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد، قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: (أدهقت الحجارة إدهاقًا) وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض، ذكرها الليث والمتتابع كالمتداخل.

**القول الثالث:** يروى عن عكرمة أنه قال: ﴿دِهَاقٗا﴾ أي صافية، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر، التقدير. وخمرًا ذات دهاق، أي عُصرت وصُفيت بالدهاق.

**وخامسها:** قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، **في الآية سؤالان:**

**الأول:** الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ إلى ماذا يعود؟ الجواب فيه قولان: **الأول:** أنها ترجع إلى الكأس، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم، ولم يتكلموا بلغو. **والثاني:** أن الكناية ترجع إلى الجنة، أي لا يسمعون في الجنة شيئًا يكرهونه.

**السؤال الثاني:** الكذاب بالتشديد يفيد المبالغة، فوروده في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ [النبا: ٢٨] مناسب لأنه يفيد المبالغة في وصفهم بالكذب، أما وروده ههنا فغير لائق؛ لأن قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ يفيد أنهم لا يسمعون الكذب العظيم، وهذا لا ينفي أنهم يسمعون الكذب القليل، وليس مقصود الآية ذلك بل المقصود المبالغة في أنهم لا يسمعون الكذب ألبتة،

والحاصل أن هذا اللفظ يفيد نفي المبالغة واللائق بالآية المبالغة في النفي. والجواب: أن الكسائي قرأ الأول بالتشديد والثاني بالتخفيف، ولعل غرضه ما قررناه في هذا السؤال؛ لأن قراءة التخفيف ههنا تفيد أنهم لا يسمعون الكذب أصلاً؛ لأن الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لأن أبا علي الفارسي قال: كِذَاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب، فإذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة في النفي، وقراءة التشديد في الأول تفيد المبالغة في الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة في الموضعين على أكمل الوجوه، فإن أخذنا بقراءة الكسائي فقد زال السؤال، وإن أخذنا بقراءة التشديد في الموضعين وهي قراءة الباقين، فالعذر عنه أن قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد، والحاصل أن النعم الواصلة إليهم تكون خالية عن زحمة أعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة.

## قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾

ثم إنه تعالى لما عَدَّد أقسام نعيم أهل الجنة قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قال الزجاج: المعنى جازاهم بذلك جزاء، وكذلك عطاء لأن معنى جازاهم وأعطاهم واحد.

**المسألة الثانية**: في الآية سؤال وهو أنه تعالى جعل الشيء الواحد جزاء وعطاء، وذلك محال لأن كونه جزاء يستدعي ثبوت الاستحقاق، وكونه عطاء يستدعي عدم الاستحقاق والجمع بينهما متنافٍ والجواب عنه: لا يصح إلا على قولنا، وهو أن ذلك الاستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد، لا من حيث إن الفعل يوجب الثواب على الله، فذلك نظرًا إلى الوعد المترتب على ذلك الفعل يكون جزاء، ونظرًا إلى أنه لا يجب على الله لأحد شيء يكون عطاء.

**المسألة الثالثة**: قوله: ﴿حِسَابًا﴾ فيه وجوه: الأول: أن يكون بمعنى كافيًا، مأخوذ من قولهم: أعطاني ما أحسبني، أي ما كفاني، ومنه قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، أي كفاني من سؤالي، ومنه قوله:

فما حللت به ضمني ... فأولى جميلاً وأعطى حسابا

أي أعطى ما كفى والوجه الثاني: أن قوله: (حسابًا) مأخوذ من حسبت الشيء إذا أعددته وقَدَّرته، فقوله: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي بقدر ما وجب له فيما وعده من الإضعاف؛ لأنه تعالى قَدَّر الجزاء على ثلاثة أوجه، وجه منها على عشرة أضعاف، ووجه على سبعمائة ضعف، ووجه على ما لا نهاية له، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، الوجه الثالث: -وهو قول ابن قتيبة-: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي كثيرًا، وأحسبت فلانًا، أي أكثرت له، قال الشاعر:

وَنُقْفِي وَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعِ

**الوجه الرابع:** أنه سبحانه يوصل الثواب الذي هو الجزاء إليهم، ويوصل التفضل الذي يكون زائدًا على الجزاء إليهم، ثم قال: ﴿حِسَابًا﴾ ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب. **الوجه الخامس:** أنه تعالى لما ذكر في وعيد أهل النار: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] ذكر في وعد أهل الجنة جزاء عطاء حسابًا، أي راعيت في ثواب أعمالكم الحساب؛ لئلا يقع في ثواب أعمالكم بخس ونقصان وتقصير، والله أعلم بمراده.

**المسألة الرابعة:** قرأ ابن قطيب: (حَسَّابًا) بالتشديد على أن الحَسَّاب بمعنى المُحِسب كالدراك بمعنى المُدرِك، هكذا ذكره صاحب (الكشاف).

**قوله تعالى:** ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾

واعلم أنه تعالى لما بالغ في وصف وعيد الكفار ووعد المتقين، ختم الكلام في ذلك بقوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** (رب السموات والرحمن) فيه ثلاثة أوجه من القراءة: الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، والجر فيهما وهو قراءة عاصم وعبد الله بن عامر، والجر في الأول مع الرفع في الثاني، وهو قراءة حمزة والكسائي.

وفي الرفع وجوه: **أحدها:** أن يكون رب السموات مبتدأ، والرحمن خبره، ثم استؤنف لا يملكون منه خطابًا. **وثانيها:** رب السموات مبتدأ، والرحمن صفة، ولا يملكون خبره. **وثالثها:** أن يضمر المبتدأ والتقدير (هو ربُّ السموات والأرض)، (هو الرحمن) ثم استؤنف: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ **ورابعها:** أن يكون (الرحمن) و (لا يملكون) خبرين. وأما وجه الجر فعلى البدل (من ربك)، وأما وجه جر الأول ورفع الثاني فجَرَ الأول بالبدل من ربك، والثاني مرفوع بكونه مبتدأ وخبره لا يملكون.

**المسألة الثانية:** الضمير في قوله: ﴿يَمْلِكُونَ﴾ إلى من يرجع؟ فيه ثلاثة أقوال: **الأول:** نقل عطاء عن ابن عباس أنه راجع إلى المشركين، يريد لا يخاطب المشركون، أما المؤمنون فيشفعون يقبل الله ذلك منهم. **والثاني:** قال القاضي: إنه راجع إلى المؤمنين، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور؛ لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور، ثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفار عدل، وأن الثواب الذي أوصله إلى المؤمنين عدل، وأنه ما يخسر حقهم، فبأي سبب يخاطبونه؟! وهذا القول أقرب من الأول لأن الذي جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين لا ذكر الكفار. **والثالث:** أنه ضمير لأهل السموات والأرض، وهذا هو الصواب، فإن أحدًا من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته، وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام لأنه نفى الملك والذي يحصل بفضله وإحسانه، فهو غير مملوك، فثبت أن هذا

السؤال غير لازم. والذي يدل من جهة العقل على أن أحدًا من المخلوقين لا يملك خطاب الله. وجوه الأول: وهو أن كل ما سواه فهو مملوكه والمملوك لا يستحق على مالكه شيئًا. وثانيها: أن معنى الاستحقاق عليه هو أنه لو لم يفعل لاستحق الذم. ولو فعله لاستحق المدح، وكل من كان كذلك كان ناقصًا في ذاته، مستكملاً بغيره، وتعالى الله عنه. وثالثها: أنه عالم بقبح القبيح، عالم بكونه غنيًا عنه، وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح، وكل من امتنع كونه فاعلاً للقبيح، فليس لأحد أن يطالبه بشيء، وأن يقول له: لمَ فعلت؟ والوجهان الأولان مفرعان على قول أهل السنة، والوجه الثالث يتفرع على قول المعتزلة، فثبت أن أحدًا من المخلوقات لا يملك أن يخاطب ربه ويطالب إلهه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أحدًا من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله في شيء أو يطالبه بشيء، قرر هذا المعنى وأكده فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدرًا ورتبة، وأكثر قدرة ومكانة، فبَيَّن أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفًا منه وخضوعًا له، فكيف يكون حال غيرهم؟!

**وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: لمن يقول بتفضيل الملك على البشر أن يتمسك بهذه الآية، وذلك لأن المقصود من الآية أن الملائكة لما بقوا خائفين خاضعين وجلين متحيرين في موقف جلال الله، وظهور عزته وكبريائه، فكيف يكون حال غيرهم؟! ومعلوم أن هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كانوا أشرف المخلوقات.

المسألة الثانية: اختلفوا في الروح في هذه الآية: فعن ابن مسعود أنه مَلَكٌ أعظم من السموات والجبال. وعن ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقًا. وعن مجاهد: خَلْق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون، وليس بناس. وعن الحسن وقتادة: هم بنو آدم. وعلى هذا معناه ذو الروح، وعن ابن عباس: أرواح الناس. وعن الضحاك والشعبي: هو جبريل عليه السلام. وهذا القول هو المختار عند القاضي، قال: لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام، وثبت أن القيام صحيح من جبريل، والكلام صحيح منه، ويصح أن يؤذن له فكيف يُصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام.

أما قوله: ﴿صَفًّا﴾ فيحتمل أن يكون المعنى أن الروح على الاختلاف الذي ذكرناه، وجميع الملائكة يقومون صفًا واحدًا، ويجوز أن يكون المعنى يقومون صفين، ويجوز صفوفًا، والصف

في الأصل مصدر فينبئ عن الواحد والجمع، وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، فيقوم الروح وحده صفًا، وتقوم الملائكة كلهم صفًّا واحدًا، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم، وقال بعضهم: بل يقومون صفوفًا لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

**المسألة الثالثة**: الاستثناء إلى من يعود؟ **فيه قولان:**

**أحدهما**: إلى الروح والملائكة، وعلى هذا التقدير؛ الآية دلت على أن الروح والملائكة لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين: إحدهما: حصول الإذن من الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والمعنى أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله.

**والشرط الثاني**: أن يقول صوابًا، فإن قيل: لما؟؟ أذن له الرحمن في ذلك القول، علم أن ذلك القول صواب لا محالة، فما الفائدة في قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟ والجواب من وجهين: **الأول**: أن الرحمن أذن له في مطلق القول، ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب، فكأنه قيل: إنهم لا ينطقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد ورود ذلك الإذن يجتهدون ولا يتكلمون إلا بالكلام الذي يعلمون أنه صدق وصواب، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة والعبودية. **الوجه الثاني**: أن تقديره: لا يتكلمون إلا في حق ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ والمعنى لا يشفعون إلا في حق شخص أذن له الرحمن في شفاعته، وذلك الشخص كان ممن قال صوابًا. واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على أنهم يشفعون للمذنبين لأنهم قالوا صوابًا وهو شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يكفي في صدقه أن يكون قد قال صوابًا واحدًا، فكيف بالشخص الذي قال القول الذي هو أصوب الأقوال وتكلم بالكلام الذي هو أشرف الكلمات؟!

**القول الثاني**: أن الاستثناء غير عائد إلى الملائكة فقط بل إلى جميع أهل السموات والأرض، والمقول الأول أَوْلى لأن عود الضمير إلى الأقرب أَوْلى.

واعلم أنه تعالى لما قرر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب، وقرر عظمة يوم القيامة قال بعده:

## قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

**قوله تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ ذلك إشارة إلى تقدم ذكره، وفي وصف اليوم بأنه حق وجوه: **أحدها**: أنه يحصل فيه كل الحق، ويندمغ كل باطل، فلما كان كاملاً في هذا المعنى قيل: إنه حق، كما يقال: (فلان خير كله) إذا وُصف بأن فيه خيرًا كثيرًا، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ يفيد أنه هو اليوم الحق وما عداه باطل؛ لأن أيام الدنيا باطلها أكثر من حقها. **وثانيها**: أن الحق هو الثابت الكائن، وبهذا المعنى يقال: إن الله حق، أي هو ثابت لا يجوز عليه الفناء، ويوم القيامة

كذلك فيكون حقًا. **وثالثها:** أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يستحق أن يقال له يوم؛ لأن فيه تُبلى السرائر وتنكشف الضمائر، وأما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتومة، والأحوال فيها غير معلومة.

**قوله تعالى:** ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مرجعًا، والمعتزلة احتجوا به على الاختيار والمشيئة، وأصحابنا رووا عن ابن عباس أنه قال: المراد فمن شاء الله به خيرًا هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبًا.

ثم إنه تعالى زاد في تخويف الكفار فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني العذاب في الآخرة، وكل ما هو آتٍ قريب، و(هو) كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وإنما سماه إنذارًا؛ لأنه تعالى بهذا الوصف قد خَوَّف منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار.

**ثم قال تعالى:** ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** ما في قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فيه وجهان: **الأول:** أنها استفهامية منصوبة بقَدَّمَتْ، أي ينظر أي شيء قدمت يداه. **الثاني:** أن تكون بمعنى الذي وتكون منصوبة ينتظر، والتقدير: ينظر إلى الذي قدمت يداه. إلا أن على هذا التقدير حصل فيه حذفان أحدهما: أنه لم يقل: قدمته، بل قال: ﴿قَدَّمَتْ﴾ فحذف الضمير الراجع. الثاني: أنه لم يقل: ينظر إلى ما قدمت، بل قال: ينظر ما قدمت، يقال نظرته، بمعنى نظرت إليه.

**المسألة الثانية:** في الآية ثلاثة أقوال: **الأول:** وهو الأظهر أن المرء عام في كل أحد؛ لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين، فليس له إلا الثواب العظيم، وإن كان قدم عمل الكافرين، فليس له إلا العقاب الذي وصفه الله تعالى، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين في أمر سوى هذين، فهذا هو المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فطوبى له إن قدم عمل الأبرار، وويل له إن قدم عمل الفجار. **والقول الثاني:** وهو قول عطاء: أن المرء ههنا هو الكافر؛ لأن المؤمن كما ينظر إلى ما قدمت يداه، فكذلك ينظر إلى عفو الله ورحمته، وأما الكافر الذي لا يرى إلا العذاب، فهو لا يرى إلا ما قدمت يداه؛ لأن ما وصل إليه من العقاب ليس إلا من شؤم معاملته. **والقول الثالث:** وهو قول الحسن وقتادة أن المرء ههنا هو المؤمن. واحتجوا عليه بوجهين **الأول:** أنه تعالى قال بعد هذه الآية، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ فلما كان هذا بيانًا لحال الكافر، وجب أن يكون الأول بيانًا لحال المؤمن. **والثاني:** وهو أن المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من الله تعالى على خوف ورجاء، فينتظر كيف يحدث الحال، أما الكافر فإنه قاطع بالعقاب، فلا يكون له انتظار أنه كيف يحدث الأمر، فإن مع القطع لا يحصل الانتظار.

**المسألة الثالثة:** القائلون بأن الخير يوجب الثواب والشر يوجب العقاب تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: لولا أن الأمر كذلك، وإلا لم يكن نظر الرجل في الثواب والعقاب على عمله بل على

شيء آخر . والجواب عنه : أن العمل يوجب الثواب والعقاب ، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات .

**أما قوله تعالى:** ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ ففيه وجوه : **أحدها:** أن يوم القيامة ينظر المرء أي شيء قدمت يداه ، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصي ، على ما قال : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] وأما الكافر فلا يتوقع العفو ، على ما قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء : ٤٨] فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي لم يكن حيًّا مكلفًا . **وثانيها:** أنه كان قبل البعث ترابًا ، فالمعنى على هذا : يا ليتني لم أُبعث للحساب ، وبقيت كما كنت ترابًا . كقوله تعالى : ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة : ٢٧] وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء : ٤٢] **وثالثها:** أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة : (كوني ترابًا) فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم في أن يصير ترابًا ، ويتخلص من عذاب الله .

وأنكر بعض المعتزلة ذلك . وقال : إنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوض وبين متفضل عليه ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن المنافع ؛ لأن ذلك كالإضرار بها ، ولا يجوز ذلك في الآخرة . ثم إن هؤلاء قالوا : إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابًا لأهل الجنة ، وما كان قبيح الصورة عقابًا لأهل النار ، قال القاضي : ولا يمتنع أيضًا إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضررًا . **ورابعها:** ما ذكره بعض الصوفية فقال : قوله : ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ معناه يا ليتني كنت متواضعًا في طاعة الله ، ولم أكن متكبرًا متمردًا . **وخامسها:** الكافر إبليس ، يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال : ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص : ٧٦] والله أعلم بمراده وأسرار كتابه, وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحب .

## سورة «عَمَّ» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهي

أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

**قوله تعالى:** ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ «عَمَّ» لَفْظُ استفهامٍ؛ ولذلك سَقَطت منها ألفُ «ما» ليتميَّز الخبرُ عن الاستفهام. وكذلك: «فيمَ، وممَّ» إذا استَفْهَمْتَ. والمعنى: عن أيِّ شيءٍ يَسألُ بعضُهم بعضاً. وقال الزجَّاج[1]: أصلُ «عَمَّ»: عن ما، فأُدغِمت النونُ في الميم؛ لأنَّها تُشارِكُها في الغُنَّة.

والضميرُ في «يتساءلون» لقريش. ورَوى أبو صالح عن ابن عباس قال: كانت قريشٌ تجلسُ لمَّا نزل القرآنُ فتتحدَّثُ فيما بينها، فمنهم المُصَدِّقُ ومنهم المكذِّبُ به، فنزلت «عَمَّ يَتَساءلونَ».

وقيل: «عمَّ» بمعنى: فيم يتشدَّدُ المشركون ويختَصِمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، فـ«عن» ليس تَتعلَّقُ بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنَّه كان يَلزمُ دخولُ حرفِ الاستفهام فيكون «عن النبإِ العظِيم» كقولك: كم مالُك، أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لِمَا ذكرناه من امتناعِ تَعَلُّقِه بـ«يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنَّما يتعلَّقُ بيتساءلون آخَرَ مُضمَرٍ. وحَسُنَ ذلك لتقدُّمِ «يتساءلون»؛ قاله المَهْدويّ.

وذكر بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الاستفهامَ في قوله: «عن» مكرَّرٌ، إلَّا أنه مضمَرٌ، كأنه

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧١.

قال: عمَّ يتساءلون، أعن النبأ العظيم؟ فعلى هذا يكون متَّصلاً بالآية الأُولى[١].

و«النبأ العظيم» أي: الخبر الكبير.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: يخالفُ فيه بعضُهم بعضاً، فيصدِّق واحدٌ ويكذِّبُ آخرُ، فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن[٢]، دليلُه قولُه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨] فالقرآنُ نبأٌ وخبرٌ وقَصَصٌ، وهو نبأٌ عظيمُ الشأن.

ورَوى سعيد عن قتادةَ قال: هو البعثُ بعد الموتِ، صار الناسُ فيه رجلين: مصدِّق ومكذِّب[٣].

وقيل: أمْر النبيِّ ﷺ. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: وذلك أنَّ اليهود سألوا النبيَّ ﷺ عن أشياء كثيرة؛ فأخبره الله جلَّ ثناؤه باختلافهم، ثم هدَّدهم فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: سيَعْلَمون عاقبةَ القرآن، أو سيعلمون البعثَ: أحقٌّ هو أم باطلٌ.

و«كلَّا» ردٌّ عليهم في إنكارهم البعثَ أو تَكذيبهم القرآنَ، فيوقَفُ عليها. ويَجوزُ أن يكون بمعنى: حقًّا، أو: ألَا، فيُبدأ بها.

والأَظْهَرُ أنَّ سؤالَهم إنَّما كان عن البعث؛ قال بعضُ علمائنا[٤]: والذي يدلُّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا يتساءلون عن البعث.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقًّا لَيَعْلَمُون[٥] صِدْقَ ما جاء به محمدٌ ﷺ من القرآن، وممَّا ذَكَرَه لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحَّاك: «كلَّا سيعلمون» يعني الكافرين عاقبةَ تَكْذيبِهم، «ثم كلَّا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبةَ تَصديقِهم[٦]. وقيل: بالعكس

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٤ .

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦-٧ .

(٤) هو الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٧١ .

(٥) كذا في النسخ، ولعل الصواب: ليعلمنَّ.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨ .

أيضاً. وقال الحسن: هو وعيدٌ بعد وعيدٍ[١]. وَقراءةُ العامَّةِ فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: «يتساءلون»، وقولِه: «هم فيه مختلِفون». وقرأ الحسن وأبو العاليةِ ومالك بنُ دينار بالتاء فيهما[٢].

**قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾: دلَّهم على قُدْرَته على البعث، أي: قُدْرتُنا على إيجادِ هذه الأمور أعْظَمُ من قدرتنا على الإعادة. والمِهادُ: الوطاءُ والفِراش. وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]. وقُرِئَ: «مَهْداً»[٣]، ومعناه: أنَّها لهم كالمهدِ للصَّبيِّ، وهو ما يُمهَدُ له فينوَّمُ عليه.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: لتَسْكُنَ ولا تتكفَّأَ ولا تَميلَ بأهلها. ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً: ذَكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخلُ في هذا كلُّ زوجٍ؛ من قبيحٍ وحَسَنٍ، وطويلٍ وقصيرٍ؛ لتختلفَ الأحوالُ فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضلُ ويصبر المفضول.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ «جعلنا» معناه: صَيَّرنا؛ ولذلك تعدَّتْ إلى مفعولَين. ﴿سُبَاتًا﴾ المفعولُ الثاني، أي: راحةً لأبدانكم، ومنه يومُ السَّبْتِ، أي: يومُ الراحة، أي: قيل لبني إسرائيلَ: استريحوا في هذا اليوم، فلا تَعمَلوا فيه شيئاً. وأنكر ابنُ الأنباريِّ هذا وقال: لا يُقالُ للراحةِ سُبَات[٤]. وقيل: أصلُه التمدُّد؛ يقال: سَبَتَتِ المرأةُ شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، فالسُّبَاتُ كالمدِّ، ورجلٌ مسبوتُ الخَلْق، أي: ممدود. وإذا أراد

---

(١) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٨٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٧ عن مجاهد وعيسى الهمداني.

(٤) بنحوه في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٨٦.

الرجلُ أن يستريح تَمدَّدَ، فسمِّيت الراحةُ سَبْتاً. وقيل: أصلُه القَطْعُ؛ يقال: سَبَتَ شعرَه سَبتاً: حَلَقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّباتُ يشبه الموتَ، إلَّا أنه لم تُفارِقْه الروح. ويقال: سَيْرٌ سَبتٌ: أي سهلٌ لين؛ قال الشاعر:

وَمـطْـوِيَّـةُ الأقـرابِ أمَّـا نـهـارُهـا فَـسَـبْـتٌ وأمَّـا لـيـلُـهـا فـذَمِـيـلُ[1]

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: تَلبَسُكم ظُلمتُه وتَغْشَاكم؛ قاله الطبريُّ[2]. وقال ابن جُبير والسُّدِّيُّ: أي: سَكناً لكم[3].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فيه إضمارٌ، أي: وقتَ مَعَاشٍ، أي: مُتَصَرَّفاً لِطَلَبِ المعاشِ، وهو كلُّ ما يُعاشُ به من المَطعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِ ذلك، فـ«معاشاً» على هذا اسمُ زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوزُ أن يكون مصدراً بمعنى العيش، على تقدير حَذْفِ المُضاف.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماواتٍ مُحكَماتٍ، أي: مُحْكَمة الخَلْقِ وثيقة البنيان.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: وَقَّاداً، وهي الشمس. وجَعَلَ هنا بمعنى خَلَق؛ لأنها تَعدَّتْ لمفعولٍ واحد، والوهَّاج الذي له وَهَج؛ يقال: وَهَجَ يَهِجُ وَهْجاً ووَهَجاً ووَهَجاناً. ويقال للجوهر إذا تَلألأَ: تَوَهَّج. وقال ابنُ عباس: وهَّاجاً: منيراً مُتلألئاً[4].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: والمعصِراتُ: الرياح. وقاله

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١١٦، وإصلاح المنطق ص١١، وجمهرة اللغة ١/ ١٩٥. قال ابن دريد: السبت ضرب من سير الإبل، والذميل: ضرب من السير أيضاً. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٦٨: يريد أنها تسير سبتاً في نهارها وذميلاً في ليلها، والذَّميل أشد من السبت. ومطوية رفع عُطف على مرفوع متقدم. والأقراب: الخواصر.

(٢) في التفسير ٢٤/ ٩.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١.

ابن عباس[١]. كأنَّها تَعْصِرُ السَّحاب.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها السحابُ. وقال سفيان والربيع وأبو العاليةِ والضحَّاكُ: أي: السحائبُ التي تَنْعصِرُ بالماء ولمَّا تُمْطِرْ بَعدُ، كالمرأةِ المُعصِرِ التي قد دنا حَيْضُها ولم تَحِض[٢]، قال أبو النجم[٣]:

فكان مِجَنِّي دون مَن كنتُ أتَّقي ... ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَان ومُعصِرُ[٤]

وقال آخر:

وذِي أُشُرٍ كالأُقحُوانِ يَزِينُهُ ... ذِهابُ الصَّبَا والمُعصِراتُ الرَّوائِحُ[٥]

فالرياح تسمَّى مُعصِرات؛ يقال: أعصَرَت الريح تُعصِرُ إعصاراً؛ إذا أثارت العجاجَ، وهي الإعصار، والسُّحبُ أيضاً تسمَّى المُعصِرات لأنَّها تُمْطِر.

وقال قتادةُ أيضاً: المُعصِراتُ: السماء[٦].

النَّحاس: هذه الأقوالُ صحاحٌ؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر: مُعْصِرات، والرياحُ تُلقِحُ السَّحابَ، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوزُ أن تكون الأقوال واحدةً، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذواتِ الرياحِ المُعْصِرات ماءً ثَجَّاجاً. وأصحُّ الأقوالِ أنَّ المعصراتِ: السحاب. كذا المعروفُ أنَّ الغيث منها. ولو

---

(١) أخرج قولهم أحمد كما في مسائل ابنه صالح ٢/ ٥٨-٦٠ ، والطبري ٢٤/ ١٢ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٧ ، وأخرجه عن ابن عباس وسفيان والربيع الطبري ٢٤/ ١٣ .

(٣) كذا في النسخ، والصواب عمر بن أبي ربيعة، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٦ . قوله: مجنِّي، المِجن: الترس، يريد أنه استتر بثلاث نسوة عن أعين الرقباء، والكاعب التي نَهَدَ ثديها. ينظر شرح الزرقاوي على موطأ مالك ٤/ ١٥٤ .

(٥) البيت للبعيث، كما في تهذيب اللغة ٢/ ١٦ ، والصحاح (ذهب)، واللسان (عصر)، والخزانة ٨/ ٥١١ ، وهو في هذه المصادر برواية: تشوفه، بدل: يزينه، والدوالح، بدل: الروائح. قال الأزهري: الدوالح هي السحاب التي أثقلها الماء فهي تدلح، أي: تمشي مَشْيَ المثقل، والذِّهاب: الأمطار. اهـ. والأُقحوان: البابونج. القاموس (قحو).

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٢ ، والطبري ٢٤/ ١٣ .

كان: بالمعُصِرات، لكان الريح أَوْلَى(١).

وفي «الصِّحَاح»: والمُعْصِراتُ: السحائبُ تعتصر بالمطر. وأُعصِر القومُ، أي: أُمْطِروا، ومنه قرأ بعضُهم: «وفيه يُعْصَرون»(٢) [يوسف: ٤٩]. والمُعْصِرُ: الجاريةُ أول ما أدْرَكَتْ وحاضَتْ؛ يقال: قد أعْصَرتْ، كأنها دَخَلتْ عَصْرَ شبابِها أو بلغَته، قال الرَّاجِزُ:

جـاريـةٌ بـسَـفَـوانَ دارُهـا تَـمشي الـهُـوَيـنَى سـاقِـطاً خِـمَـارُهـا
قـد أعْـصَـرتْ أو قَـدْ دَنـا إعْـصـارُهـا(٣)

والجمعُ: مَعَاصِر. ويقال: هي التي قارَبت الحيض؛ لأنَّ الإعصار في الجارية كالمراهَقَةِ في الغلام. سمعتُه من أبي الغَوْثِ الأعرابيِّ(٤).

قال غيره: والمُعْصِرُ: السحابةُ التي حان لها أن تُمْطِر؛ يقال: أجَزَّ الزرعُ فهو مُجِزٌّ، أي: صار إلى أنْ يُجزَّ، وكذلك السحابُ إذا صار إلى أن يُمطِر فقد أعْصَر(٥). وقال المبرِّد: يقال: سحابٌ مُعصِر، أي: مُمسِكٌ للماء، ويُعتَصَر منه شيءٌ بعد شيءٍ، ومنه: العَصَر ـ بالتحريك ـ للملجأ الذي يُلْجَأُ إليه، والعُصرةُ بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة يوسف(٦)، والحمدُ لله. وقال أبو زبيد:

صـادِيـاً يـسـتـغِـيـثُ غـيـر مُـغـاثٍ ولـقـدْ كـان عُـصـرةَ الـمـنـجـودِ(٧)

ومنه: المُعصِرُ للجارية التي قد قَرُبتَ من البلوغ؛ يقال لها: مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس

(١) الكلام بنحوه مختصراً في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٤ ، وينظر ما سلف ١١/ ٣٧٠ .

(٣) الصحاح (عصر)، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٥٤ لمنظور بن مرثد الأسدي، وهو بلا نسبة في العين ١/ ٢٩٥ ، وتهذيب اللغة ٢/ ١٧ . وسَفَوان بفتح أوله وثانيه، ماء على قَدْر مرحلة من باب المربد بالبصرة. معجم البلدان ٣/ ٢٢٥ .

(٤) الصحاح (عصر).

(٥) زاد المسير ٩/ ٦ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢ ، وتهذيب اللغة ٢/ ١٦ .

(٦) ١١/ ٣٦٩-٣٧٠ .

(٧) سلف ١١/ ٣٧٠ ، وأبو زبيد هو حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة.

في البيت، فيكون البيت لها عَصَراً.

وفي قراءةِ ابن عباس وعِكرمةَ: «وأنزلنا بِالمعصِراتِ»[١]. والذي في المصاحف: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال أبيّ بن كعب والحسنُ وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بنُ حيان: «مِن المعصِراتِ»، أي: من السماوات[٢].

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ صباباً متتابعاً؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما[٣]. يقال: ثَجَجْتُ دَمَه فأنا أَثُجُّه ثَجًّا، وقد ثجَّ الدَّمُ يَثُجُّ ثُجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازِمٌ ومتعدٍّ، والثَّجَّاجُ في الآية: المنصَبُّ. وقال الزجَّاج: أي: الصَّبَّاب[٤]، وهو متعدٍّ كأنه يَثُجُّ نفسَه، أي: يَصُبّ. وقال عَبيد بن الأبرص:

فـثـجَّ أعـلاه ثـم ارتـجَّ أسـفـلُـه وضـاقَ ذَرعاً بِحملِ الماءِ مُنصاحِ[٥]

وفي حديث النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عن الحجِّ المبرور فقال: «العَجُّ والثَّجُّ»[٦] فالعجُّ: رَفْعُ الصوتِ بالتلبية، والثجُّ: إراقةُ الدماءِ وذبحُ الهدايا. وقال ابن زيد: ثجَّاجاً كثيراً[٧]. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغيرِ ذلك ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الأبِّ، وهو ما تأكلُه الدوابُّ من الحشيش. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٧ ، والمحتسب ٢/ ٣٤٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤ وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٧ ، وأخرجه عن الحسن الطبري ٢٤/ ١٣ ، وسلف هذا القول عن قتادة.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ١٤-١٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢ .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٣ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢/ ٢٢٠ ، ومختارات ابن الشجري ٢/ ٤٨ . وهو في هذه المصادر برواية: فالتج أعلاه. والبيت برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ١٨٤ . وقوله: منصاح، أي: منشق بالماء، في اللسان (صوح): يقال: صاحه يصوحه فهو منصاح: إذا شقَّه.

(٦) سلف ٥/ ٢٢٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٥ .

﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفَّةً بعضُها ببعضٍ لتَشَعُّب أغصانها، ولا واحدَ له كالأَوْزاع، والأخياف[١]. وقيل: واحدُ الألفافِ لِفٌّ بالكسر، ولُفٌّ بالضم؛ ذكره الكسائيُّ[٢]، قال:

جَنَّةٌ لُفٌّ وعَيْشٌ مُغْدِقٌ ... ونَدامَى كلُّهم بِيضٌ زُهُرْ[٣]

وعنه أيضاً وأبي عبيدةَ: لفيفٌ، كشريفٍ وأشراف[٤].

وقيل: هو جمعُ الجمع؛ حكاه الكسائيُّ. يقال: جنةٌ لَفَّاءُ ونَبْتٌ أَلَفُّ، والجمعُ: لُفٌّ بضم اللام، مثل: حُمْر، ثم يُجمع اللُّفُّ ألفافاً[٥].

الزمخشري[٦]: ولو قيل: جمع مُلْتَفَّة، بتقديرِ حذفِ الزوائدِ لكان وجيهاً. ويقال: شجرةٌ لَفَّاءُ وشَجرٌ لُفٌّ، وامرأةٌ لَفَّاءُ، أي: غليظةُ الساقِ مجتمعةُ اللَّحم.

وقيل: التقدير: ونُخرجُ به جناتٍ ألفافاً، فحذف لدلالةِ الكلام عليه. ثم هذا الالتفافُ والانضمامُ معناه أنَّ الأشجار في البساتين تكونُ متقارِبة، فالأغصانُ[٧] من كلِّ شجرةٍ متقاربةٌ لقوَّتها.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي: وقتاً ومَجمعاً وميعاداً للأوَّلين

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٨ . الأوزاع: الجماعات المتفرقة. والأخياف: الضروب المختلفة في الأشكال والأخلاق، والإخوة لأم واحدة من آباء شتى. معجم متن اللغة (وزع) و(خيف).

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ٩ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٨ .

(٤) ذكره عن الكسائي ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ ، ولم نقف عليه في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٠٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٥ .

(٦) في الكشاف ٤/ ٢٠٨ .

(٧) في (د): الأغصان.

والآخِرين؛ لمَا وَعَد الله من الجزاء والثواب. وسمِّي يومَ الفَصلِ لأنَّ الله تعالى يَفْصِلُ فيه بين خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي: إلى موضع العَرْضِ ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أُمماً. كلُّ أمَّةٍ مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعاتٍ. الواحد: فوجٌ. ونَصَبَ يوماً بدلاً من اليوم الأول.

وروي من حديث معاذ بنِ جبل: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال النبيُّ ﷺ: «يا معاذ، لقد سألتَ عن أمرٍ عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَرُ عشرةُ أصنافٍ من أمَّتي أشتاتاً قد مَيَّزهم الله تعالى من جماعاتِ المسلمين، وبدَّل صُورَهم، فمنْهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورةِ الخنازير، وبعضُهم مُنكَّسون: أرجُلُهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُمْيٌ يتردَّدون، وبعضُهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يَمضغون ألسنتَهم، فهي مُدلَّاةٌ على صدورهم، يسيلُ القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذَّرُهم أهلُ الجمع، وبعضُهم مقطَّعةٌ أيديهم وأرجلُهم، وبعضُهم مُصَلَّبون على جذوعٍ من النار، وبعضُهم أشدُّ نتْناً من الجيف، وبعضُهم مُلبَسون جلابيبَ سابغةً من القَطِران لاصقةً بجلودهم. فأمَّا الذين على صورة القردة: فالقَتَّات من الناس ـ يعني النَّمَّام ـ وأمَّا الذين على صورة الخنازير: فأهلُ السُّحْت والحرام والمَكْس. وأمَّا المنكّسون رؤوسهم ووجوههم: فأكلَةُ الربا، والعُمْيُ: مَن يَجورُ في الحكم، والصم البكم: الذين يُعجَبون بأعمالهم. والذي يمضغون ألسنتَهم: فالعلماءُ والقُصَّاص الذين يخالفُ قولَهم فِعْلُهم. والمقطَّعةُ أيديهم وأرجلُهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلّبون على جذوع النار: فالسُّعاةُ بالناس إلى السلطان. والذين هم أشدُّ نَتناً من الجِيف: فالذين يتمتَّعون بالشهوات واللَّذات، ويمنعون حقَّ الله من أموالهم. والذين يُلْبَسون الجلابيب: فأهلُ الكِبرِ والفَخْرِ والخيَلاء»[1].

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه: كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١. وفي إسناده حنظلة السدوسي، قال عنه أحمد: منكر الحديث يحدث بأعاجيب. وقال ابن معين: ليس بشيء تغيَّر في آخر عمره. الميزان ٧/ ٦٢١.

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أي: لنزولِ الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقيل: تقطَّعتْ، فكانت قِطعاً كالأبواب، فانتصابُ الأبوابِ على هذا التأويل بحذفِ الكاف.

وقيل: التقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ؛ لأنها تصير كلّها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل: تنحلُّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبوابٌ. وقيل: إنَّ لكلِّ عبدٍ بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب.

وفي حديث الإسراء: «ثُم عرج بنا إلى السماء، فاستَفْتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: وقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا»[١].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أي: لا شيءَ، كما أنَّ السراب كذلك: يظنُّه الرائي ماءً وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت»: نُسِفتْ من أصولها. وقيل: أُزيلَتْ عن مواضعها[٢].

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۝٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ۝٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾: مِفعال من الرَّصَد، والرَّصَد: كلُّ شيءٍ كان أمامك. قال الحسن: إنَّ على النار رَصَدًا، لا يدخل أحدٌ الجنةَ حتى يجتازَ عليه، فَمَن جاء بجوازٍ جاز، ومَن لم يَجِئْ بجوازٍ حُبِس. وعن سُفيان ﷺ قال: عليها ثلاثُ قَناطِر[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٠٤)، والبخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٨٥ .

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٠-٢١ .

وقيل: «مِرصاداً»: ذات أرصادٍ على النسب، أي: تَرصُدُ مَن يمرُّ بها. وقال مقاتل: مَحبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيلَ إلى الجنة حتى يَقْطَع جهنم. وفي «الصِّحَاح»: والمِرصاد: الطريق(١).

وذكر القُشَيريُّ: أنَّ المرصادَ: المكانُ الذي يَرصُد فيه الواحدُ العدوَّ، نحو المِضمار: الموضعُ الذي تُضمَّر فيه الخيل. أي: هي معدَّةٌ لهم، فالمِرصادُ بمعنى المحلّ، فالملائكةُ يرصدون الكفارَ حتى ينزلوا بجهنم.

وذكر الماورديّ(٢) عن أبي سِنان أنَّها بمعنى: راصِدة، تُجازيهم بأفعالهم.

وفي «الصِّحَاح»: الراصِدُ للشيء: الراقبُ له؛ تقول: رَصَده يَرْصُدُه رَصْداً ورَصَدًا، والتَّرصُّد: الترقُّب. والمَرصَد: موضعُ الرَّصد. الأصمعيُّ: رَصَدته أرصُده: ترقَّبته، وأرْصَدْتُ له(٣): أعْدَدْتُ له. والكسائيُّ مِثْله.

قلت: فجهنَّمُ مُعدَّةٌ مترصِّدةٌ، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقُّب، أي: هي متطلِّعةٌ لِمَن يأتي. والمِرْصادُ مِفْعالٌ من أبنية المبالَغة، كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثُر من جهنَّم انتظارُ الكفار.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ بدلٌ من قوله: «مِرصاداً»، والمآبُ: المَرْجِعُ، أي: مَرْجِعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَؤُوبُ أوْبةً: إذا رجع. وقال قتادةُ: مَأوًى ومنزلاً(٤). والمرادُ بالطاغين: مَن طغى في دِينه بالكفر، أو في دنياه بالظُّلم.

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: ماكِثين في النار مادامت الأحقاب، وهي لا تَنْقطعُ، فكلَّما مضى حُقُبٌ جاء حُقُبٌ. والحُقُب بضمَّتين: الدَّهْرُ، والأحقابُ:

---

(١) الصحاح (رصد).

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: وأرصدته، والمثبت من الصحاح (رصد)، وهو موافق لما في تهذيب اللغة ١٢/ ١٣٧، واللسان (رصد)، والتاج (رصد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١ .

الدُّهور. والحِقبة بالكسر: السَّنة؛ والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميميُّ:

وكنَّا كنَدْمانَيْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... من الدَّهرِ حتى قيل لن يتصدَّعا
فلمَّا تفرَّقْنا كأنِّي ومالِكاً ... لِطولِ اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا[١]

والحُقبُ بالضمِّ والسكون: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر من ذلك وأقلّ، على ما يأتي، والجمع: أحقاب.

والمعنى في الآية: لابِثين فيها أحقاب الآخرةِ التي لا نهايةَ لها، فحذف الآخرة لدلالةِ الكلام عليه، إذ في الكلام ذِكرُ الآخرة، وهو كما يقال: أيام الآخرة، أي: أيامٌ بعدَ أيامٍ إلى غير نهاية، وإنما كان يدلُّ على التوقيت لو قال: خمسة أحقابٍ، أو عشرة أحقاب، ونحوه. وذَكَر الأحقابَ لأنَّ الحُقُب كان أبْعَدَ شيءٍ عندهم، فتكلَّم بما تَذهبُ إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كنايةٌ عن التأبيد، أي: يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيامِ؛ لأنَّ الأحقابَ أهوَلُ في القلوب، وأدلُّ على الخلود. والمعنى متقاربٌ، وهذا الخلودُ في حقِّ المشركين.

ويمكن حَمْلُ الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب[٢].

وقيل: الأحقابُ وقتٌ لشُرْبِهم الحميمَ والغَساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوعٌ آخرُ من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾.

و«لابِثِين» اسمُ فاعلٍ من لَبِثَ، ويقوِّيه أنَّ المصدر منه اللَّبْث بالإسكان،

---

(١) الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩١ و١٤٤٠، والمفضليات ص٢٦٧، ومعجم الشعراء ص٤٣٢-٤٣٣، والخزانة ٨/ ٢٧٢. قوله: كندماني جذيمة، هما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب، نادَما جذيمة الأبرش بعد أن ردَّا عليه ابن أخته، وينظر تفصيل قصتهما في الخزانة ٨/ ٢٧٠-٢٧٣. وذكر المرزباني أن متمم ابن نويرة أدرك الإسلام وأسلم فحسن إسلامه، واستفرغ شعره في مراثي أخيه مالك بن نويرة، وكان خالد ﷺ قتله في الردة.

(٢) ويردُّ هذا القول بأن بعده: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦.

كالشَّرْب. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لَبِثِينَ» بغير ألف[1]، وهو اختيارُ أبي حاتمٍ وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِثٌ ولَبِثٌ، مثل طَمِعٍ وطامِعٍ، وفَرِهٍ وفارِه. ويقال: هو لَبِثٌ بمكان كذا، أي: قد صار اللَّبْثُ شأنَه، فشُبِّه بما هو خِلْقةٌ في الإنسان، نحو: حَذِر وفَرِق؛ لأنَّ باب فَعِل إنَّما هو لِمَا يكونُ خِلْقةً في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسمُ الفاعلِ مِن لابثٍ.

والحُقبُ: ثمانون سنةً في قول ابنِ عمرَ وابنِ مُحَيصنٍ وأبي هريرة[2]؛ والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، واليومُ ألفُ سنةٍ من أيام الدنيا. قاله ابنُ عباس[3]. وروى ابنُ عمرَ هذا مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ[4].

وقال أبو هريرةَ: والسنةُ ثلاثُ مئةِ يومٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ مثلُ أيامِ الدنيا[5].

وعن ابن عمر أيضاً: الحُقبُ: أربعون سنةً. السُّدِّيُّ: سبعون سنةً. وقيل: إنه ألفُ شهرٍ. رواه أبو أمامةَ مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلاث مئةِ سنةٍ[6].

الحسن: الأحقابُ لا يَدرِي أحدٌ كم هي، ولكنْ ذَكَروا أنَّها مئةُ حُقبٍ، والحُقبُ

(١) السبعة ص٦٦٨، والتيسير ص٢١٩ عن حمزة. وقراءة الكسائي: «لابثين» كقراءة الباقين.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة ﷺ هناد في الزهد (٢١٩)، والطبري ٢٤/٢٤، وما بعده قطعة منه. وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/٣٠٨ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وروي عن ابن عمر مرفوعاً على ما يأتي.

(٣) ذكره الرازي في التفسير ٣١/١٣.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/٣٣٢، وابن عدي في الكامل ٣/١١٣٤، وذكره الذهبي في الميزان ٢/٢٢٣ مع حديث آخر، وقال: هما موضوعان في نَقْدي. وسيأتي متن الحديث منسوباً لعمر ﷺ.

(٥) من قوله: وقال أبو هريرة والسنة ثلاث مئة يوم، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ووقع في (ي): كل يوم مثل الدنيا. وقد سلف عن أبي هريرة نحوه، وفيه: ...واليومُ ألفُ سنة من أيام الدنيا.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/١٨٦. وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ. قال ابن كثير: هذا حديث منكر جدًّا، والقاسم (وهو ابن عبد الرحمن) والراوي عنه ـ وهو جعفر بن الزبير ـ كلاهما متروك.

الواحدُ منها سبعون ألفَ سنةٍ، اليومُ منها كألفِ سنةٍ ممّا تَعدُّون[(١)].

وعن أبي أمامةَ أيضاً، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الحُقُبَ الواحدَ ثلاثون ألفَ سنةٍ»[(٢)] ذكره المَهْدَويُّ. والأولُ الماوَرْديُّ[(٣)].

وقال قُطرب: هو الدهرُ الطويل غيرُ المحدود.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ لا يَخْرُجُ من النار مَن دَخَلَها حتى يكونَ فيها أحقاباً، الحُقبُ بضعٌ وثمانون سنةً، والسنةُ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ ممَّا تَعُدُّون، فلا يَتَّكِلَنَّ أحدُكم على أنه يخرجُ من النار»[(٤)]. ذكره الثعلَبيُّ.

القُرظيُّ: الأحقابُ: ثلاثةٌ وأربعون حُقباً، كلُّ حُقبٍ سبعون خَريفاً، كلُّ خريفٍ سبعُ مئةِ سنةٍ، كلُّ سنةٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّون يوماً، كلُّ يومٍ ألفُ سنة.

قلت: هذه أقوالٌ مُتعارِضةٌ، والتحديدُ في الآية للخلود يحتاج إلى توقيفٍ يقطَعُ العُذْر، وليس ذلك بثابتٍ عن النبيِّ ﷺ. وإنَّما المعنَى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوَّلاً، أي: لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلَّما مضى زمنٌ يَعقُبه زمنٌ، ودهرٌ يَعقُبه دهرٌ، هكذا أَبَدَ الآبِدينَ من غير انقطاع.

وقال ابن كَيسان: معنى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾: لا غايةَ لها ولا انتهاء، فكأنه قال: أبداً.

وقال ابن زيد ومُقاتلٌ: إنَّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٥٧)، وفي إسناده جعفر بن الزبير والقاسم بن عبد الرحمن، وقد سلف الكلام عليهما.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٨٦، وما سيأتي من قول قطرب منه.

(٤) لم نقف عليه عن عمر ﷺ، وسلف من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يعني أنَّ العدد قد انقَطع، والخلود قد حصل[١].

قلت: وهذا بعيدٌ؛ لأنه خَبَرٌ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] على ما تقدَّم. هذا في حقِّ الكفار، فأمَّا العُصاةُ الموحِّدون فصحيحٌ، ويكونُ النَّسخُ بمعنى التخصيصِ. والله أعلم.

وقيل: المعنى «لابِثِين فيها أحقاباً»، أي: في الأرض؛ إذ قد تقدَّم ذكرُها، ويكونُ الضمير في «لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً» لجهنم[٢].

وقيل: واحدُ الأحقاب حُقُبٌ وحِقبَةٌ[٣]؛ قال:

فإن تَنْأ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِها فأنك مِمَّا أحدَثَتْ بالمُجرَّبِ[٤]

وقال الكُميت:

مَرَّ لها [من] بعد حِقْبَةٍ حِقَبُ[٥]

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في الأحقاب ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ البردُ: النومُ في قول أبي عبيدةَ وغيرِه[٦]؛ قال الشاعر:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ وإن شِئتُ لم أطْعَمْ نُقاخاً ولا بردا[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٨، وفيه: يعني أن العدد قد ارتفع والخلود...

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣١.

(٣) العين ٣/ ٥٣، وتهذيب اللغة ٤/ ٧٣.

(٤) في (م): فأنت بما أحدثته بالمجرب. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤٢، قال: شارح الديوان: أي: سيبدو لك وَصْلُها أو هجرها، فتكون على تجربة منها.

(٥) وصدره: ولا حُمولٍ غدتْ ولا دِمَنٍ، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٠١، وما بين حاصرتين منه، قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: الدِّمَن: آثار الرماد، يقول: لم تُطربني حُمول (وهي الهوادج) غدت مفارِقةً لي، ولا دِمَنٌ وقفتُ بها أتذكر فيها أهلها.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٠٩، والأضداد لابن الأنباري ص٦٤.

(٧) البيت للعَرْجي، كما في الأضداد لابن الأنباري ص٦٤، والصحاح (نقخ)، وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص١٤٦ و٥٠٩، قال الجوهري: النقاخ: الماء العذب.

وقاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ والكسائيُّ والفَضْلُ بنُ خالد ومعاذٌ النحويُّ[١]، وأنْشَدوا قولَ الكِنديِّ:

بَـردتْ مَـراشِـفُـهـا عـلـيَّ فـصَـدَّنـي عـنـهـا وعـن تَـقْـبـيـلـهـا الـبَـرْدُ[٢]

يعني النوم. والعربُ تقول: مَنعَ البَرْدُ البَرْدَ، يعني: أذهبَ البردُ النوم.

قلت: وقد جاء الحديثُ أنه عليه الصلاة والسلام سُئل: هل في الجنَّة نومٌ؟ فقال: «لا، النومُ أخو الموتِ، والجنةُ لا موتَ فيها»[٣] فكذلك النار، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر:٣٦].

وقال ابن عباس: البَرْدُ: بردُ الشراب[٤]. وعنه أيضاً: البردُ: النوم، والشرابُ الماء[٥].

وقال الزجَّاج: أي: لا يذوقون فيها بَرْدَ ريحٍ ولا ظلٌّ ولا نومٍ[٦]. فجعل البردَ بردَ كلِّ شيءٍ له راحةٌ، وهذا بردٌ ينفعُهم، فأمَّا الزمهريرُ فهو بردٌ يَتأذَّونَ به، فلا ينفعُهم، فلهم منه من العذاب ما اللهُ أعلمُ به.

وقال الحسنُ وعطاءٌ وابن زيد: «بَرْدًا»، أي: رَوْحًا وراحةً[٧]؛ قال الشاعر:

---

(١) في النسخ: وأبو معاذ النحوي، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦، والبحر ٨/ ٤١٤، وروح المعاني ٣٠/ ١٦. والفضل بن خالد هو أبو معاذ النحوي. ينظر الثقات لابن حبان ٩/ ٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٦١، وبغية الوعاة ٢/ ٢٤٥. ومعاذ النحوي المذكور لعله معاذ بن مسلم الهراء، نحوي كوفي، وهو أستاذ الكسائي. ينظر إنباه الرواة ٣/ ٢٨٨، وبغية الوعاة ٢/ ٢٩٠.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٣١ برواية: ... فردّني عنها وعن قبلاتها البرد. قال شارح الديوان: مراشفها: شفاهها.

(٣) سلف ٥/ ١٥٣.

(٤) أخرجه الفراء ٣/ ٢٢٨ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٨ عن الحسن وعطاء.

فلا الظلَّ مِن بردِ الضُّحى تَستطيعُه ولا الفَيءَ أوقاتَ العَشِيِّ تَذوقُ[١]

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ جملةٌ في موضع الحال من «الطاغين» أو نعتٌ للأحقاب، والأحقابُ ظرفُ زمانٍ، والعاملُ فيه «لابِثين»، أو «لبِثِين» على تعديةِ فَعِل. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناءٌ منقطِعٌ في قولِ مَن جَعَل البردَ النومَ، ومَن جَعلَه من البرودة كان بدلاً منه[٢].

والحميم: الماءُ الحارُّ؛ قاله أبو عبيدة[٣]. وقال ابن زيد: الحميم: دموعُ أعيُنِهم، تُجمعُ في حياضٍ ثم يُسقَونه[٤].

قال النحاس: أصلُ الحميم: الماءُ الحارُّ، ومنه اشتُقَّ الحَمَّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٣]: إنَّما يرادُ به النهايةُ في الحرِّ. والغَسَّاقُ: صديدُ أهلِ النار وقَيحُهم. وقيل: الزَّمهرير[٥].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بتشديدِ السين[٦]، وقد مضى في «ص» القولُ فيه[٧].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: مُوافِقاً لأعمالهم. عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما[٨]، فالوِفاقُ بمعنى المُوافقة، كالقِتال بمعنى المقاتلة. و«جزاءً» نصبٌ على المصدر، أي:

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٤٠ ، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٥٨ ، والصحاح (فيأ)، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٧/ ٣٨٦ ، ووقع في المصادر عدا الديوان: ولا الفيء من برد العشي تذوق، ورواية الديوان:

فلا الظلَّ منها بالضحى تستطيعُه ولا الفَيءَ منها بالعشي تذوق

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٦ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠ .

(٥) أخرج هذا القول الطبري ٢٤/ ٣٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) وهي قراءة حفص أيضاً. السبعة ص٦٦٨ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) عند تفسير الآية (٥٧) منها.

(٨) تفسير الطبري ٢٤/ ٣١ .

جازَيناهم جزاءً وافَقَ أعمالَهم؛ قاله الفَرَّاء والأخفش[١]. وقال الفَرَّاء أيضاً: هو جمعُ الوفْقِ، والوفقُ واللِّفق[٢] واحد.

وقال مقاتل: وافَقَ العذابُ الذنبَ، فلا ذنبَ أعظَمُ من الشرك، ولا عذابَ أعظمُ من النار[٣].

وقال الحسن وعكرمةُ: كانت أعمالُهم سيئةً، فأتاهم الله بما يَسُوءُهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون ﴿حِسَابًا﴾ أي: مُحاسبةً على أعمالهم. وقيل: معناه: لا يرجون ثوابَ حسابٍ[٤]. الزجَّاج: أي: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابَهم[٥].

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: بما جاءتْ به الأنبياءُ. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءةُ العامَة: ﴿كِذَّابًا﴾ بتشديدِ الذَّالِ وكَسْرِ الكاف، على كَذَّب، أي: كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفرَّاء[٦]: هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحةٌ؛ يقولون: كَذَّبت [به] كِذَّاباً، وخرَّقتُ القميصَ خِرَّاقاً؛ وكلُّ فِعلٍ في وزنِ «فَعَّلَ»، فمصدرُه فِعَّال مشدَّدٌ في لغتهم، وأنشد بعضُ الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطتَني عن صَحابتي وعن حِوَجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِيا[٧]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩ ، وللأخفش ٢/ ٧٢٧ .

(٢) اللِّفْقُ: القرين الملائم، يقال للرجلين لا يفترقان: هما لِفْقان. معجم متن اللغة (لفق)، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للفراء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩ ، والبيت للأعور بن براء الكلابي، كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢/ ٥٦٦ ، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص٧٩ ، وهو دون نسبة في العين ٣/ ٢٥٩ ، والأضداد لابن الأنباري ص٢١ .

وقرأ عليٌّ ﷺ: «كِذَاباً» بالتخفيف، وهو مصدرٌ أيضاً[١]. وقال أبو عليٍّ: التخفيفُ والتشديدُ جميعاً مصدرُ المكاذَبة، كقول الأعشى:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ[٢]

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدرَ: كَذَبَ وكَذَّب جميعاً[٣].

الزمخشري[٤]: «كِذَاباً» بالتخفيف مصدرُ: كَذَب، بدليلِ قوله:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ

وهو مثلُ قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] يعني: وكذَّبوا بآياتنا فكذَبوا كِذَابا. أو تنصِبُه بـ«كَذَّبوا»؛ لأنه يتضمَّن معنى كَذَبوا؛ لأنَّ كلَّ مُكَذِّب بالحقِّ كاذِبٌ. [وإنْ جَعَلتَه بمعنى المُكَاذَبة فمعناه: وكذَّبوا بآياتنا فكاذَبوا مُكاذَبةً، أو: وكذَّبوا بها مُكاذِبين] لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذَبة.

وقرأ ابن عمر: «كُذَّاباً» بضمِّ الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصْبُه على الحال[٥]. الزَّمخشريُّ: وقد يكونُ الكُذَّاب بمعنى الواحدِ البليغِ في الكَذِب، يقال: رجلٌ كُذَّاب، كقولك: حُسَّان وبُخَّال، فيُجعَل صفةً لمصدرِ «كَذَّبوا»، أي:

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ٣٦٩، والكلام فيه مفصَّل، وهذا القول مع البيت ذكره أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٣، ونقله عنه ابن الجوزي ٩/ ٩. وقال المبرد في الكامل ٢/ ٧٤٧: وأنشدني المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة، ثم ذكره برواية: فصدقتهم وكَذَبتهم...، ولم نقف عليه في ديوان الأعشى.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٣٤٨.

(٤) في الكشاف ٤/ ٢٠٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ وفيه أن الذي قرأ بها هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكذا ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤١٥، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٨ عن عمر بن عبد العزيز والماجشون.

تكذيباً كُذَّاباً مُفْرِطاً كَذِبهُ[١].

وفي «الصِّحَاح»: وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ وهو أحدُ مصادرِ المشدَّد؛ لأنَّ مصدرَه قد يجيءُ على «تفعيل» مثل التكليم، وعلى «فِعَّال» مثل كِذَّابٍ، وعلى «تَفْعِلة» مثل تَوصِية، وعلى «مُفعَّلٍ» مثل: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩][٢].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ «كلَّ» نصب بإضمارِ فعلٍ يَدُلُّ عليه «أحصيناه»، أي: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه[٣]. وقرأ أبو السَّمَّال: «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء[٤]. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأنَّ معنى أحصينا: كتبنا، أي: كتبناه كتاباً[٥].

ثم قيل: أراد به العلمَ، فإنَّ ما كُتِب كان أَبْعَد من النسيان. وقيل: أي: كتبناه في اللوح المحفوظِ لتَعْرِفَه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابةٌ صَدَرَتْ عن الملائكة الموكَّلين بالعِباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليلهُ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال أبو بَرْزَةَ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن أشدِّ آيةٍ في القرآن؟ فقال: «قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾»[٦]. أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٩-٢١٠ .

(٢) الصحاح (كذب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤ . وقال النحاس: من النحويين مَن يقول: العامل فيه مضمر، أي: كتبناه كتاباً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ ، وهو من طريق جَسر بن فرقد، عن الحسن، عن أبي برزة، عن النبي ﷺ. وأخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ١٥٩ من طريق جَسْر، عن الحسن، عن أبي برزة موقوفاً. قال ابن كثير: جَسْر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية. قلنا: والحسن لم يسمع من أبي برزة. المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢ .

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذَكَر جزاءَ مَن اتَّقى مَخالفةَ أمرِ الله، «مَفازاً» مَوْضعَ فوزٍ ونجاةٍ وخَلاصٍ ممّا فيه أهلُ النار. ولذلك قيل للفَلاة إذا قلَّ ماؤها: مَفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا تفسيرُ الفوزِ. وقيل: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا»: إنَّ للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستانُ المُحَوَّط عليه؛ يقالُ: أحْدَقَ به، أي: أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي: كرومَ أعنابٍ، فحذف.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعِب: جمع كاعِب، وهي النَّاهِد؛ يقال: كَعَبَت الجاريةُ تكعُبُ كُعوباً، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنهَد نهُوداً. وقال الضحَّاك: الكواعبُ: العَذَارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِن حَصَانٍ قد حَوَيْنا كَريمةٍ ... ومِن كاعبٍ لم تَدْرِ ما البؤسُ مُعصِرِ[(١)]

والأتراب: الأقرانُ في السنِّ. وقد مضى في سُورة الواقعة[(٢)]، الواحد: تِرْب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادةُ وابن زيد وابن عباس: مُترَعة مملوءة[(٣)]؛ يقال: أدْهَقْتُ الكأسَ، أي: ملأتها، وكأسٌ دِهَاقٌ، أي: ممتلِئة؛ قال:

ألَا فاسقِني صِرفاً سقانِي الساقي ... مِن مائِها بِكأسك الدِّهاقِ[(٤)]

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتانا عامِرٌ يَبْغي قِرَانا ... فأترغنا له كأساً دِهاقا[(٥)]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٨٨ .

(٢) عند الآية (٣٧) منها.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩-٤١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٩ .

(٤) في (د): بكأسه الدهاق، ولم نقف على البيت.

(٥) الصحاح (دهق)، والنكت والعيون ٦/ ١٨٩ . ووقع في الصحاح: يرجو، بدل: يبغي.

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمةُ ومجاهدٌ وابن عباس أيضاً: متتابعة[١]، يَتْبعُ بعضُها بعضاً، ومنه: ادَّهَقتِ الحِجارة ادِّهاقاً، وهو شدّة تَلازُمِها[٢] ودخول بعضِها في بعض؛ فالمتتابعُ كالمُتَدَاخِل.

وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسْلَم: صافية[٣]؛ قال الشاعر:

لأنتِ إلى الفؤادِ أحبُّ قُرْباً ... مِن الصَّادي إلى كأسٍ دِهاقِ[٤]

وهو جمعُ دَهَقٍ، وهو خشبتان يُعْصَرُ بهما[٥]. والمرادُ بالكأس: الخمرُ، فالتقدير: خمراً ذات دِهَاق، أي: عُصِرتْ وصُفِّيتْ؛ قاله القُشيريّ[٦].

وفي «الصحاح»: وأدْهَقْتُ الماء، أي: أفْرَغته إفراغاً شديداً، قال أبو عمرو: الدَّهَقُ ـ بالتحريك ـ: ضَرْبٌ من العذاب. وهو بالفارسية أشكَنْجَه. المبرِّد: والمَدهوق: المعذَّبُ بجميع العذابِ الذي لا فُرجةَ فيه. ابن الأعرابيّ: دَهَقْتُ الشيء: كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقته، وأنشَدَ لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحمِ للباعِ والنَّدَى ... وبعضُهُم تغلي بذَمٍّ مَرَاجِلُهْ[٧]

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢ ، وأخرجه عن عكرمة البخاري (٣٨٣٩) بلفظ: ملأى متتابعة.

(٢) في (م): تلازبها. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٨٩ .

(٥) في العين ٣/ ٣٦٤ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٩٤ ، والقاموس (دهق): الدَّهَق: خشبتان يُغمز بهما الساق. وفي المعجم الوسيط (دهق): الدهق: خشبتان يُعصَر بهما الساق للتعذيب، وينظر ما سينقله المصنف عن الصحاح.

(٦) وقاله أيضاً الرازي في التفسير ٣١/ ٢٠ .

(٧) الصحاح (دهق)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥١٥ ، وأساس البلاغة (نقع)، واللسان (بضع). ووقع في المصادر: مناقعه، بدل: مراجله. قوله: بَضْع، البَضْع جمع بَضْعة وهي القطعة من اللحم. القاموس (بضع). وقال المرزوقي: المناقع جمع المِنْقَع والمِنْقَعة، وهو القدور الصغار. وذِكْرُ الباع مَثَل، والمراد الكرم. وقوله: بذمٍّ، في موضع الحال، تقديره: تغلي مذمومة.

ودَهْمَقْتُه بزيادة الميم: مثلُه. وقال الأصمعيُّ: الدَّهْمقَة: لِينُ الطعام وطِيبُه ورِقَّته، وكذلك كلُّ شيءٍ ليِّنٍ، ومنه حديث عمر: لو شئتُ أن يدُهمَقَ لي لفَعلْتُ، ولكنَّ الله عاب قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][(١)].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح، ومنه الحديثُ: «إذا قلتَ لصاحبكَ: أنْصِتْ، يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطُبُ، فقد لَغَوت»[(٢)] وذلك أنَّ أهل الجنةِ إذا شربوا لم تتغيَّر عقولُهم، ولم يتكلَّموا بلغوٍ، بخلافِ أهلِ الدنيا.

«ولا كِذَّابا»: تقدَّم، أي: لا يُكذِّبُ بعضُهم بعضاً، ولا يسمعون كذباً، وقرأ الكسائيُّ: «كِذَاباً» بالتخفيف[(٣)]، من كَذَبت كِذَاباً، أي: لا يتكاذَبون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنَّما خفَّفها هاهنا لأنَّها ليست مقيَّدة بفعلٍ يصيرُ مصدراً له، وشدَّد قولَه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ لأنَّ «كذَّبوا» يقيِّدُ المصدرَ بالكِذَّاب.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ نصب على المصدر؛ لأنَّ المعنى: جزاهم بما تقدَّم ذكره جَزاءً، وكذلك ﴿عَطَآءً﴾ لأنَّ معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي: أعطاهم عطاء. ﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيراً؛ قاله قتادة[(٤)]؛ يقال: أحسَبْتُ فلاناً، أي: كَثَّرتُ له العطاءَ حتى قال: حَسْبي؛ قال:

ونُقفي ولِيدَ الحيِّ إنْ كان جائِعاً ونُحسِبُهُ إنْ كانَ ليس بجائِعِ[(٥)]

---

(١) الصحاح (دهق)، وخبر عمر ﷺ أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٧٣ ، وذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ .

(٢) سلف ٤/ ١٧ .

(٣) السبعة ص٦٦٩ ، والتيسير ص٢١٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣ ، والطبري ٢٤/ ٤٤ .

(٥) البيت لامرأة من بني نمير، أو هو لغيثة أمِّ الهيثم، كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ص٧٤ ، ونسبه =

وقال القُتَبيُّ[١]: ونرى أصلَ هذا: أنْ يُعطيَه حتى يقولَ حَسْبي.

وقال الزجَّاج[٢]: «حِساباً»، أي: ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أحْسَبني كذا: أي: كَفَاني.

وقال الكلبيُّ: حاسَبهم فأعطاهم بالحسنة عَشراً. مجاهد: حساباً لمَا عملوا. فالحسابُ بمعنى العدِّ[٣]. أي: بقَدْرِ ما وَجْبَ له في وَعد الرَّبِّ؛ فإنَّه وَعَدَ للحسنة عَشراً، ووَعدَ لقومٍ بسبعِ مئةِ ضِعْفٍ، وقد وعد لقوم جزاءً لا نهايةَ له ولا مِقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][٤].

وقرأ أبو هاشم: «عَطَاء حَسَّاباً» بفتح الحاءِ وتشديدِ السين[٥]، على وزن فَعَّال، أي: كَفافاً؛ قال الأصمعيُّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجلَ بالتشديد: إذا أكرمته، وأنشد قولَ الشاعر:

إذا أتـــاهُ ضَـيــفُــه يُـحَـسِّـبُـهْ[٦]

وقرأ ابن عباس: «حساناً» بالنون[٧].

---

= صاحب اللسان (حسب) لامرأة من بني قشير، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص٢٦٣، وأمالي القالي ٢/ ٢٥٤ و٢٦٢، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٠. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٤١٦: نُقفي من القَفِيَّة، وهو المدَّخر في البيت من المأكول، يقول: إن جاء صبي من صبيان الحي جائعاً أطعمناه من القفية. وقوله: ونُحسِبه، قال ابن السكيت: أي نكثر له ونعطيه حتى يقول: حَسْبُ.

(١) في تفسير الغريب ص٥١٠.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٥.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٨٩، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٤.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٢٢.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٤٩، والكشاف ٤/ ٢١٠ عن يزيد بن قطيب.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) القراءات الشاذة ص١٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٨، والبحر ٨/ ٤١٥، وعندهم جميعاً: «عطاء حَسَناً».

**قوله تعالى:** ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ﴾: قرأ ابن مسعود ونافعٌ وأبو عمر وابنُ كثير، وزيدٌ عن يعقوب، والمفضَّلُ عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبرُه(١). أو بمعنى: هو ربُّ السَّماواتِ، ويكون «الرحمن» مبتدأً ثانياً.

وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ وابنُ مُحيصِنٍ كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: جزاءً من ربِّك ربِّ السَّماوات الرحمنِ(٢).

وقرأ ابن عباسٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «رَبِّ السَّماوات» خفضاً على النعت، «الرحمنُ» رفعاً على الابتداء(٣)، أي: هو الرحمنُ. واختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعْدَلُها، خفض «رَبِّ» لقُرْبِه من قوله: «مِن رَبِّك» فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبُعْدِه منه ـ على الاستئناف ـ وخبرُه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يملكون أنْ يسألوه إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكسائيُّ: «لا يملكون منه خطابًا» بالشفاعة إلَّا بإذنه.

وقيل: الخطابُ: الكلام، أي: لا يملكون أنْ يُخاطبوا الربَّ سبحانه إلَّا بإذْنه، دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: أراد الكفار، أي(٤): «لا يملِكُون منه خِطاباً»، فأمَّا المؤمنون فيَشفَعُون.

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة، والمشهور عن عاصم ويعقوب بالخفض في كليهما، على ما يأتي.

(٢) وهي قراءة عاصم أيضاً.

(٣) السبعة ص٦٦٩، والتيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة والكسائي وخلف، وسلف المشهور عن عاصم.

(٤) قوله: أي، ليس في (م).

قلت: بعد أن يُؤذَنَ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ «يومَ» نصب على الظَّرف، أي: لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقومُ الروح، واختُلف في الروح على أقوالٍ ثمانيةٍ:

الأول: أنَّه مَلَكٌ من الملائكة. قال ابن عباس: ما خَلَق الله مخلوقاً بعدَ العرشِ أعظَمَ منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفًّا، وقامت الملائكةُ كلُّهم صفًّا، فيكونُ عِظَمُ خَلقه مثلَ صفوفهم[1]. ونحوٌ منه عن ابن مسعود؛ قال: الروحُ ملكٌ أعظَمُ من السَّماوات السبع، ومن الأرضينَ السبع، ومن الجبال. وهو حِيَال السماءِ الرابعة، يُسبِّحُ الله كلَّ يوم اثنتي عَشرةَ ألفَ تسبيحةٍ، يخلُق الله من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً، فيجيءُ يومَ القيامةِ وحدَه صفًّا، وسائر الملائكة صَفًّا[2].

الثاني: أنه جبريلُ عليه السلام. قاله الشَّعبيُّ والضحَّاك وسعيد بن جبير[3]. وعن ابن عباس: إنَّ عن يمين العرشِ نَهراً من نورٍ، مثلَ السماواتِ السبعِ، والأرضينَ السبعِ، والبحارِ السبع، يَدْخل جبريلُ كلَّ يومٍ فيه سَحراً فيغتسلُ، فيزدادُ نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفضُ فيخلقُ الله من كلِّ قطرةٍ تقعُ من ريشه سبعينَ ألفَ مَلكٍ، يدخل منهم كلَّ يوم سبعون ألفاً البيتَ المعمور، والكعبةَ سبعون ألفاً، لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة[4].

وقال وَهْبٌ: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تعالى ترعد فرائصُه، يخلقُ الله تعالى من كلِّ رَعدةٍ مئةَ ألفِ مَلَك، فالملائكةُ صفوفٌ بين يدي الله تعالى

(١) الوسيط ٤/ ٤١٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٠، وزاد المسير ٩/ ١٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٤/ ٤٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٦-٤٧. وقال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: هذا قول غريب جدًّا.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٧، والنكت والعيون ٦/ ١٩٠.

(٤) سلف ١٢/ ٢٨٨-٢٨٩. ووقع في النسخ الخطية: لا يعودون إليه إلى...

منكَّسةٌ رؤوسُهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت، وهو قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني قولَ: لا إلهَ إلَّا الله.

الثالث: روى ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الرُّوحُ في هذه الآيةِ جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكةً، لهم رُؤوسٌ وأيْدٍ وأرْجُلٌ، يأكلون الطعام». ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، فإنَّ هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند[١]. وهذا قولُ أبي صالح ومجاهد[٢]. وعلى هذا هم خَلْقٌ على صورة بني آدمَ، كالناس وليسوا بناس.

الرابع: أنَّهم أشرافُ الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيَّان[٣].

الخامس: أنهم حَفَظَةٌ على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح[٤].

السادس: أنهم بنو آدم؛ قاله الحسن وقتادة[٥]. فالمعنى: ذَوو الروح.

وقال العَوْفيُّ والقُرَظيُّ: هذا ممّا كان يكتُمه ابن عباس[٦]؛ قال: الرُّوح: خَلْقٌ من خَلْقِ الله على صُوَرِ بني آدمَ، وما نزَلَ مَلَكٌ من السماء إلَّا ومعه واحدٌ من الرُّوح[٧].

السابع: أرواحُ بني آدمَ تقومُ صَفًّا، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وذلك بين النفختين، قبل أن تُردَّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية[٨].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٩ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية عن ابن عباس بنحوه موقوفاً.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤١٨).

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٠.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٤٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ عن قتادة.

(٧) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٠٦).

(٨) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩ من طريق عطية عن ابن عباس.

الثامن: أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢][١].

و«صفًّا»: مصدر: أي: يقومون صُفوفاً. والمصدرُ يُنْبِئُ عن[٢] الواحدِ والجمع، كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يومُ الصَّفِّ. وقال في موضع آخر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] هذا يدلُّ على الصفوف، وهذا حينَ العرضِ والحساب. قال معناه القُتَبيُّ[٣] وغيره.

وقيل: يقومُ الروحُ صفًّا، والملائكةُ صفًّا، فهم صفَّان. وقيل: يقوم الكلُّ صفًّا واحداً.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يشفعون ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني: حقاً؛ قاله الضحَّاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله[٤]. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: يَشفعون لمَن قال: لا إله إلا الله.

وأصلُ الصَّواب: السَّدَادُ من القول والفعل، وهو مِن أصاب يصيبُ إصابةً، كالجواب من أجاب يجيب إجابة.

وقيل: «لا يتكلَّمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفًّا، لا يتكلَّمون هيبةً وإجلالاً «إلَّا مَن أذِنَ له الرحمنُ» في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً، وأنهم يوحِّدون الله ويسبِّحونه.

وقال الحسن: إنَّ الرُّوح يقول يومَ القيامة: لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلَّا بالرحمة، ولا النار إلَّا بالعمل. فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٠ .

(٢) في (ظ) و(ي): ينبى على.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٥١١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٤/٥١-٥٢ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٠ .

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائنُ الواقع ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: مَرجِعاً بالعمل الصالح، كأنه إذا عَمِل خيراً ردَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا عمل شرًّا عدَّه منه. ويَنْظُر إلى هذا المعنى قولُه عليه السلام: «والخيرُ كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك»[(١)].

وقال قتادةُ: «مآباً»: سبيلاً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: يخاطِبُ كفارَ قريش ومشركي العربِ؛ لأنَّهم قالوا: لا نُبْعَثُ. والعذابُ عذابُ الآخرة، وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ، وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] قال معناه الكلبيُّ وغيره. وقال قتادةُ: عقوبةُ الدنيا؛ لأنَّها أقربُ العذابين. قال مقاتل: هي قَتْلُ قريشٍ ببدْرٍ[(٣)].

والأَظْهَرُ أنه عذابُ الآخرة، وهو الموتُ والقيامة؛ لأنَّ مَن مات فقد قامتْ قيامتُه، فإن كان من أهل الجنةِ رأى مقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْيَ والهَوَانَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ بيَّن وقتَ ذلك العذاب، أي: أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يومَ ينظُرُ المرء ما قدمتْ يداه، أي: يراه. وقيل: ينظُر إلى ما قدَّمت، فحذف إلى.

والمرءُ هاهنا: المؤمنُ في قول الحسن[(٤)]، أي: يجدُ لنفسه عملاً، فأمَّا الكافرُ فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنَّى أن يكون تراباً، ولمَّا قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ عُلم أنه أرادَ بالمرءِ المؤمن.

وقيل: المرءُ هاهنا: أُبيّ بنُ خلف وعُقْبةُ بنُ أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر»: أبو جهل.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي ﷺ، وسلف ٩/ ١٤٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، والطبري ٢٤/ ٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤ .

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أحدٍ وإنسانٍ يَرَى في ذلك اليوم جزاءَ ما كَسَب.

وقال مُقاتل: نزلت قولُه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبي سَلَمةَ بنِ عبد الأسَد المخزوميِّ، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ في أخيه الأسود بن عبد الأسد[1].

وقال الثعلبيُّ: سمعتُ أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافرُ هاهنا إبليس، وذلك أنَّه عاب آدمَ بأنه خُلِق من تراب، وافْتخَر بأنه خُلق من نار، فإذا عايَنَ يومَ القيامةِ ما فيه آدمُ وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنَّى أنه يكونُ بمكانِ آدمَ، فيقول: «يا ليتني كنت ترابا» قال: ورأيتُه في بعض التفاسير للقُشَيريِّ أبي نصر، وقيل: أي يقول إبليسُ: يا ليتني خُلِقتُ من التراب ولم أَقُلْ: أنا خيرٌ من آدم.

وعن ابن عمر: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرضُ مَدَّ الأدِيم، وحُشِر الدَّوابُّ والبهائمُ والوحوش، ثم يوضعُ القِصاصُ بين البهائم، حتى يُقتَصّ للشاة الجمَّاء من الشاة القَرناء نَطَحتْها، فإذا فُرِغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنتُ تراباً». ونحوه عن أبي هريرةَ وعبدِ الله بن عمرو بن العاص ﷺ[2]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مُجوَّداً[3]، والحمد لله.

ذكر أبو جعفر النَّحاس: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سَلَمة بن شبيب، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدَّثنا مَعْمر، قال: أخبرني جعفر بن بُرقان الجَزَريُّ، عن يزيد بن الأصمِّ، عن أبي هريرة، قال: إنَّ الله تعالى يحشُر الخلقَ كلَّهم

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٩١ .

(٢) أخرجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الطبري ٢٤/ ٥٤-٥٥ ، والحاكم ٤/ ٥٧٥ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٤٠ ، وذكره عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٩ . وأخرجه عن أبي هريرة الطبري ٢٤/ ٥٥ ، وسيأتي نحوه عن أبي هريرة أيضاً. وينظر ما سلف ٨/ ٣٧٢ .

(٣) ص٢٧٣ .

من دابة وطائرٍ وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُراباً[١].

وقال قومٌ: «يا ليتني كنتُ تراباً» أي: لم أُبعَثْ، كما قال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وقال أبو الزِّناد: إذا قُضِي بين الناسِ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم [سوى ولدِ آدَمَ] ولمؤمني الجنِّ: عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم: «يا ليتني كنتُ تراباً»[٢]. وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنِّ يعودون تراباً[٣]. وقال عمر بنُ عبد العزيز والزهريُّ والكلبيُّ ومجاهدٌ: مؤمنو الجِنَّةِ حولَ الجَنةِ في رَبَضٍ ورِحاب، وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة الرحمن بيانُ هذا، وأنَّهم مكلَّفون: يُثابُونَ ويُعاقَبون، فهم كبني آدمَ[٤]، واللهُ أعلمُ بالصواب.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٤٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٥ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأبو الزناد هو عبد الله بن ذكوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٤) ينظر ٢٠/ ١٣٨ .

## تفسير سورة النبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : عن أى شىء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المفظع الباهر .

قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن . والأظهر الأول لقوله : ﴿ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعنى : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر .

ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد .

ثم شرع تعالى يُبَيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ؟ أى : ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم ، قارّةً ساكنة ثابتة ، ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى : قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد [١] والسعى

---

(١) فى أ : « الاسترداد » .

فى المعايش [١] فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان » [٢] .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: ٤] ، وقال الشاعر [٣] :

فَلَمَّا لَبِسْنَ اللَّيلَ ، أو حِينَ نَصَّبَتْ ... لـه مِـن خَـذا آذانِها وَهْـوَ جَـانِـحُ

وقال قتادة في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : سكناً .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أى: جعلناه مشرقا مُنيراً [٤] مضيئاً ،ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعنى : الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾: الريح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو داود الحَفَرى [٥]، عن سفيان ، عن الأعمش، عن المِنْهَال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ قال : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، والكلبى ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا ، وأبو العالية ، والضحاك ،والحسن ،والربيع بن أنس ،والثورى . واختاره ابن جرير .

وقال الفراء : هى السحاب التى تَتَحلَّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا دنا حيضها ولم تحض .

وعن الحسن ، وقتادة : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ يعنى : السموات . وهذا قول غريب .

والأظهر أن المراد بالمعصرات :السحاب ، كما قال [الله] [٦] تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [الروم:٤٨] أى : من بينه .

وقوله : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا . وقال الثورى : متتابعاً . وقال ابن زيد : كثيرا .

---

(١) فى م : « فى المعاش » .

(٢) عند تفسير الآية ٤٧ .

(٣) هو ذو الرمة ، والبيت فى تفسير الطبرى (٣٠ / ٣) .

(٤) فى أ : « نيرا » .

(٥) فى أ : « الجونى » .

(٦) زيادة من م .

قال ابن جرير : ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبي ﷺ : « أفضلُ الحجّ العجّ والثجّ » . يعني : صَبّ دماء البُدْن [١] . هكذا قال. قلت : وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أنعت لك الكُرسُفَ » ـ يعني : أن تحتشي بالقطن ـ : قالت [٢] : يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً [٣] . وهذا فيه دلالة على استعمال الثَّج في الصبّ المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أي : لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبَارَك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للأناسي والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أي : خضراً يؤكل رطبا ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أي : بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذهلك [٤] في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ . قال ابن عباس ، وغيره : ﴿أَلْفَافًا ﴾: مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ الآية [الرعد: ٤] .

**﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا (٣٠) ﴾ .**

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤] .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : قال مجاهد : زُمَراً [٥] . قال ابن جرير : يعني تأتي كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] [٦] .

وقال البخاري : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون ».

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/٥) ، وهذا الحديث جاء من حديث ابن عمر ، وأبي بكر ، وجابر ، وابن مسعود رضي الله عنهم ، وانظر تخريجها والكلام عليها في : نصب الراية للإمام الزيلعي (٣/٣٣ ـ ٣٥) .

(٢) في أ : « فقالت ».

(٣) حديث المستحاضة هو حديث حمنة بنت جحش ، وقد رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٣٩) ، وأبو داود في السنن برقم (٢٨٧) ، والترمذي في السنن برقم (١٢٨) .

(٤) في م ، أ : « ذلك » .

(٥) في م : « زمرا زمرا ».

(٦) تفسير الطبري (٣٠/ ٦٠) .

قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيتُ » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال :« أبيت ».قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى ، إلا عظماً واحدا ، وهو عَجْبُ الذنَب ، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى : طرقا ومسالك لنزول الملائكة ، ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨] ، وكقوله : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥] .

وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى : يخيل إلى الناظر أنها شىء ، وليست بشىء ، وبعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر ، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ــ ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدّة ، ﴿ لِّلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المَرَدة العصاة المخالفون للرسل ، ﴿ مَآبًا ﴾ أى : مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونُزُلا . وقال الحسن ، وقتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث قناطر .

وقوله : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ماكثين فيها أحقابا ، وهى جمع « حُقب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مِهْران ، عن سفيان الثورى ، عن عَمَّار الدّهنى ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال على بن أبى طالب لهلال الهَجَرى : ما تجدونَ الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة (٢) .

وهكذا رُوىَ عن أبى هُرَيرة ، وعبد الله بن عَمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَير ، وعَمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسّدى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهما ابن أبى حاتم .

وقال بُشَير (٣) بن كعب : ذُكر لى أن الحُقب الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما(٤) ، كل يوم ألف سنة . رواه ابن جرير (٥) ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : ذكر عن عُمَر بن على بن أبى بكر الأسْفَذْنى(٦): حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارى ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ لَّابِثِينَ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) .
(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٨) .
(٣) فى أ:« وقال بشر » .
(٤) فى م :« كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/٨) .
(٦) فى أ :« الأسعدى » .

فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، قال : فالحقب [ألف] (١) شهر ، الشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة (٢) . وهذا حديثٌ منكر جداً ، والقاسم والراوى عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك .

وقال البزار :حدثنا محمد بن مِرْدَاس ، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المُعَلَّى قال : سألت سليمان التيمى : هل يخرج من النار أحد ؟ فقال : حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ أنه قال : «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا » . قال : والحُقْب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون (٣) .

ثم قال : سليمان بن مسلم بصرى مشهور .

وقال السّدى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ : سبعمائة حُقب ، كل حُقب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون .

وقد قال مقاتل بن حَيّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

وقالد خالد بن مَعْدان : هذه الآية وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما قال قتادة والربيع بن أنس . وقد قال قبل ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الرحيم البَرْقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن زهير ، عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود فى النار ، ولكن ذكروا أن الحُقبَ سبعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وقال سعيد ، عن قتادة : قال الله تعالى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ وهو : ما لا انقطاع له ، وكلما مضى حُقب جاء حقب بعده ، وذكر لنا أن الحُقْب ثمانون سنة .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ، ولكن الحُقْب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . رواهما أيضا ابن جرير (٤) .

---

(١) زيادة من إتحاف المهرة للبوصيرى .

(٢) ورواه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق ٢١٨ سليمانية ) عن مروان ، عن جعفر بن الزبير بنحوه ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٩٢) من طريق يعقوب بن كعب ، عن مروان ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعا : «الحقب الواحد : ثلاثون ألف سنة » .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٩) « كشف الأستار » ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٧٠٢٩) من طريق زياد بن أبى زيد ، عن سليمان بن مسلم به نحوه ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٥) :« فيه سليمان بن مسلم الخشاب ، وهو ضعيف جداً ».

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٩) .

وقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ أى : لا يجدون فى جَهنَّم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ . قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع بن أنس .

فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغَسَّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ، ولا يواجه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » (١) بما أغنى عن إعادته ، أجارنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه .

قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعنى : النوم ، كما قال الكندى :

بَرَدت مَرَاشفها عَلَىّ فصدّنى عنها وعَنْ قُبُلاتها ، البَرْدُ

يعنى بالبرد : النعاس والنوم (٢) . هكذا ذكره ولم يَعزُه إلى أحد . وقد رواه ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن مرة الطيب . ونقله عن مجاهد أيضا . وحكاه البغوى عن أبى عُبيدة ، والكسائى أيضا .

وقوله : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة .

وقوله :﴿ كِذَّابًا ﴾ أى : تكذيبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفَرّاءَ على المروة : الحلقُ أحبّ إليك أو القِصار ؟ وأنشد بعضهم (٣) :

لَقَد طَالَ ما ثَبَّطتنِى عَن صَحَابَتِى وعن حـوج قضاؤها مِن شِفَائيا

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص:٥٨] .

قال قتادة : عن أبى أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال :لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى ، حدثنا خالد بن عبد

---

(١) انظر تفسير الآية : ٥٧ من سورة «ص» .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٩) .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/١١) .

الرحمن، حدثنا جَسر [(١)] بن فَرقد ، عن الحسن قال : سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية فى كتاب الله على أهل النار . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، فقال: « هلك القوم بمعاصيهم الله عزّ وجل » [(٢)] .

جسرُ [(٣)] بن فَرقد : ضعيف الحديث بالكلية .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ . قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿ حَدَائِقَ ﴾،وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أى : حوراً كواعب . قال ابن عباس ومجاهد ،وغير واحد : ﴿كَوَاعِبَ﴾ أى : نواهد ، يعنون أن ثُدُيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب ، أى : فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدّشتكىّ ، حدثنى أبى ، عن أبى سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى ، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث ، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن أبى القاسم الدمشقى ، عن أبى أمامة : أنه سمعه يحدث عن النبى ﷺ أنه قال : « إن قُمُص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله ، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم : يا أهل الجنة ، ماذا تريدون أن أمطركم ؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب » [(٤)] .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ، قال ابن عباس : مملوءة متتابعة . وقال عكرمة : صافية . وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملأى المترعة . وقال مجاهد [(٥)] ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة .

وقوله : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:٢٣] أى: ليس فيها كلام لاغٍ عَارٍ عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص .

---

(١) فى أ: « حدثنا حسن » .

(٢) ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٣٥) من طريق محمد بن غالب ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن جسر بن فرقد به ،فذكره موقوفا ، ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٤/ ١٤٥) من طريق جعفر بن جسر بن فرقد ، عن أبيه ، عن الحسن به،ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٤/ ١٤٥) من طريق مهدى بن ميمون ، عن الحسن بن دينار ، عن الحسن ، عن أبى برزة مرفوعاً بنحوه .

(٣) فى أ: « حسن » .

(٤) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١/ ١٩٥) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، عن أبى سفيان ـ عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكرى به .

(٥) فى م :« وقال قتادة » .

وقوله : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته ؛ ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : «أعطانى فأحسبنى » أى : كفانى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافىّ .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء .

وقوله : ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا، ما هو ؟ على أقوال :

أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم .

الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا [(١)] مما كان ابن عباس يكتمه .

الثالث : أنهم خَلق من خلق الله ، على صُور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش .

الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣ ، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى .

والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] .

والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، حدثنا رَواد [(٢)] بن الجراح ، عن أبى

---

(١) فى م:« وهذا » .

(٢) فى أ :« حدثنا داود » .

حمزة ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن ابن مسعود قال : الروح : فى السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة مَلَكاً من الملائكة يجىء يوم القيامة صفاً وحده (١) ، وهذا قول غريب جداً .

وقد قال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله بن عرْس المصرى ، حدثنا وهب [الله بن رزق أبو هريرة ، حدثنا بشر بن بكر ] (٢) ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عطاء ، عن عبد الله بن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن لله ملكا لو قيل له : التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة ، لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » (٣) .

وهذا حديث غريب جداً ، وفى رفعه نظر ، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس ، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم .

وتَوَقَّفَ ابنُ جرير فلم يقطَع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] . وكما ثبت فى الصحيح : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى : حقا ، ومن الحق : « لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٤) ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩] ، وكقوله :﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة:١٣].

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا ، ولم يكن خُلِقَ ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدى الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١٥) .

(٢) زيادة من م، أ .

(٣) المعجم الكبير (١١/٩٥) ، والمعجم الأوسط برقم (٦٦) « مجمع البحرين» ، وقال فى الأوسط :« لم يروه عن الأوزاعى إلا بشر ، تفرد به وهب » ، ووهب لم أر من ترجم له .

(٤) فى م :« سبيلا » وهوخطأ.

الحيوانات التي كانت في الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصّور المشهور [١] ، وورد فيه آثار عن أبى هُرَيرة ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما .

**[ آخر تفسير سورة « عم » [٢] ] [٣]**

(١) حديث الصور تقدم بطوله عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة « الأنعام » .
(٢) فى م : « النبأ » . (٣) زيادة من م، أ .

## سورة النبأ

مكّيّة، وهي أربعون أو[1] إحدى وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله "عمّا" فحُذف منه "الألف" إمّا فرقًا بين "ما" الاستفهاميّة وغيرها، أو قصدًا للخِفّة لكثرة استعمالها. وقُرئ على الأصل.[2] وما فيها مِن الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهَوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أيّ شيء عظيم الشأن.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: أهلُ مكّة، وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً، لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسمّاه؛ بل عن وقوعه الذي هو حال مِن أحواله ووصفٌ مِن أوصافه. فإنّ "ما" وإن وُضعت لطلب حقائق الأشياء ومسمّيات أسمائها، كما في قولك: ما المُلك؟ وما الروح؟ لكنّها قد يُطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيدٌ؟ فيقال: عالمٌ أو طبيبٌ.

وقيل: كانوا يسألون عنه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين استهزاءً، كقولهم: يتداعَونهم، أي: يدعُونهم.[3] وتحقيقه أنّ صيغة "التفاعُل" في الأفعال المتعدِّية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يصير كلّ واحد مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّه يُرفَع بإسناد الفعل إليه ترجيحًا

---

[1] س – أربعون أو.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وعكرمة وعيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٩.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٥.

لجانب فاعليته ويُحال بمفعوليته على دلالة العقل، كما في قولك: "تراءى القومُ"، أي: رأى كلّ واحد منهم الآخرَ.

وقد تُجرَّد عن المعنى الثاني،[١] فيُراد بها مجرَّد صدور الفعل عن المتعدِّد عاريًا عن اعتبار وقوعه عليه، فيُذكَر للفعل حينئذ مفعول متعدِّد كما في المثال المذكور، أو واحد كما في قولك: "تراءوا الهلالَ"، وقد يُحذَف لظهوره كما فيما نحن فيه، فالمعنى: عن أيّ شيء يسأل هؤلاء القومُ الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين؟ وربّما تُجرَّد عن صدور الفعل عن المتعدِّد أيضًا فيُراد بها تعدُّده باعتبار تعدُّد متعلَّقه مع وَحدة الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم، ٥٥/٥٣].

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المسئول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيهِ أذهان السامعين نحوه وتنزيلِهم منزلةَ المُستفهِمين، فإنّ إيراده على طريقة الاستفهام مِن علّام الغيوب للتنبيه على أنّه لانقطاع قرينه وانعدام نظيرِه خارجٌ عن دائرة علوم الخلق، خليق / بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه، كأنّه [٢٥٦و]
قيل: عن أيّ شيء يتساءلون؟ هل أخبِركم به؟ ثمّ قيل: بطريق الجواب: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠]، فـ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بما يدلّ عليه المذكور مِن مضمر حقُّه أن يقدَّر بعدها مُسارعةً إلى البيان ومراعاةً لترتيب السؤال. هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيليّة.

وقد قيل: هي متعلِّقة بالمذكور، و﴿عَمَّ﴾ متعلِّق بمضمر مفسَّر به، وأُيِّد ذلك بأنّه قُرئ: "عَمَّهْ".[٢] والأظهرُ أنّه مبنيٌّ على إجراء الوصل مُجرَى الوقف.[٣] وقيل: "عن" الأولى للتعليل، كأنّه قِيل: لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وقيل: قبلَ ﴿عَنْ﴾ الثانية استفهام مضمر، كأنّه قيل: عمّ يتساءلون أعن النبأ العظيم؟[٤]

والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطَر، وقد وُصف بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعد وصفه بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ تأكيدًا لخطره إثر تأكيد، وإشعارًا بمدار التساؤل عنه، و﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قُدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل.

---

١ وفي هامش م: هو وقوع الفعل عليه.
٢ قرأ بها يعقوب والبَزّي بخلاف عنها. النشر لابن الجزري، ١٣٤/٢.
٣ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٤.
٤ القولان في اللباب لابن عادل، ٩٣/٢٠.

وجعلُ الصلة جملةً اسميّةً للدلالة على الثبات، أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمِن جازم باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا[1] وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون، ٣٧/٢٣]، وشاكٍّ يقول ﴿مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية، ٣٢/٤٥]. وقيل: منهم مَن يُنكِر المَعادَين معًا كهؤلاء، ومنهم مَن يُنكِر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى.[2]

وقد حُمل الاختلاف على الاختلاف في كيفيّة الإنكار، فمنهم مَن يُنكره لإنكاره الصانع المختار، ومنهم مَن يُنكره بناءً على استحالة المعدوم بعينه.[3]

وحملُه على الاختلاف بالنفي والإثبات بناءً على تعميم التساؤل لفريقَي المسلمين والكافرين، على أنّ سؤال الأوّلين ليزدادوا خشيةً واستعدادًا، وسؤالَ الآخرين ليزدادوا كفرًا وعنادًا،[4] يردّه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾... إلخ،[5] / فإنّه صريح في أنّ المراد اختلافُ الجاهلين به المنكرين له؛ إذ عليه يدور [٢٥٦ظ] الردعُ والوعيد، لا على خلاف المؤمنين لهم، وتخصيصهما بالكفَرة بناءً على تخصيص ضمير ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بهم مع عموم الضميرين السابقين للكلّ ممّا ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله. هذا ما أدّى إليه جليلُ النظر.

والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظرُ الدقيق أن يُحمَل اختلافهم على مخالفتهم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يُعتبَر في الاختلاف محضُ صدور الفعل عن المتعدِّد حسبما ذُكر في التساؤل، فإنّ "الافتعال" و"التفاعل" صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك، يجري في كلّ منهما ما يجري في الأخرى، لا على مخالفة بعضهم لبعض مِن الجانبين؛ لأنّ الكلّ وإن استحقّ الردعَ والوعيد لكنّ استحقاق كلّ جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر؛ إذ لا حقّيّة في شيء منهما حتّى يستحقّ مَن يخالفه المؤاخذة؛ بل لمخالفته له عليه السلام.

---

[1] م س + وما يهلكنا إلّا الدهر.
[2] القول في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.
[3] الوجه في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.
[4] أورد الزمخشري هذا الوجه على سبيل التضعيف في الكشّاف، ٥١٥/٤.
[5] س - إلخ.

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين، و﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع، و"السين" للتقريب والتأكيد، وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام مِن وقوع ما يتساءلون عنه ووقوعِ ما يختلفون فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل، ٣٨/١٦] إلى قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ[1] فِيهِ﴾ الآية [النحل، ٣٩/١٦]، فإنّ ذلك عارٍ عن صريح الوعيد؛ بل هو عبارة عمّا يُلاقونه مِن فنون الدواهي والعقوبات.

والتعبير عن لقائها بالعِلم لوقوعه في معرِض التساؤل والاختلاف، والمعنى: ليرتدِعوا عمّا هم عليه، فإنّهم سيعلمون عمّا قليل حقيقةَ الحال إذا حلّ بهم العذاب والنَّكال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الوعيد الثّاني أبلغ وأشدّ. وقيل: الأوّل عند النزع والثاني في القيامة. وقيل: الأوّل للبعث والثاني للجزاء.[2] وقُرِئ: "سَتَعْلَمُوْنَ"[3] بـ"التاء" على نهج الالتفات / إلى الخطاب الموافق لِما بعده مِن [٢٥٧و]
الخطابات تشديدًا للردع والوعيد، لا على تقدير "قل لهم" كما تُوهِّم؛[4] فإنّ فيه مِن الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾... إلخ، استئناف مَسوق لتحقيق النبأ المُتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقّيّته إثر ما نُبّه عليها

---

[1] م س: اختلفوا.

[2] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن ومالك بن دينار وابن مِقسَم والفحّام، والجوردكي عن الوليد عن يعقوب، والتغلبي عن ابن ذكوان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٩.

[4] ذلك في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

بما ذُكر مِن الردع والوعيد. ومِن ههنا اتّضح أنّ المُتساءل عنه هو البعث، لا القرآن أو نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما قيل.[١] و"الهمزة" للتقرير. والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة في الإلزام والتبكيت. والمِهاد: البِساط والفِراش. وقُرئ: "مَهْدًا"[٢] على تشبيهها بمهد الصبيّ، وهو ما يُمهَد له فيُنوّم عليه تسميةً للمَمهود بالمصدر. وجعلُ الجبال أوتادًا لها إرساؤها بها كما يُرسى البيت بالأوتاد.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عطفٌ على المضارع المنفيّ بـ﴿لَمْ﴾ داخل في حُكمه، فإنّه في قوّة "أمَا جعلنا"... إلخ، أو على ما يقتضيه الإنكار التقريري، فإنّه في قوّة أن يقال: "قد جعلنا"... إلخ. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ذكرًا وأنثى ليسكُن كلّ مِن الصنفين إلى الآخر، وينتظِم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنّى التناسُل.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: موتًا فإنّه أحد التَّوفّيين لِما بينهما مِن المشاركة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦٠/٦]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٤٢/٣٩]. وقيل: قطعًا عن الإحساس والحركة لإراحة القوى الحيوانيّة وإزاحةِ كلالها.[٣] والأوّل هو اللائق بالمِقام، كما ستعرفه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع النوم فيه غالبًا ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، ولعلّ المرادَ به ما يُستتر به عند النوم مِن اللِّحاف ونحوه، فإنّ شبَه الليل به أكملُ واعتبارَه في تحقيق المقصد أدخَلُ، فهو جَعْل الليل محلًّا للنوم الذي جُعل موتًا كما جُعل النّهار محلًّا لليقظة المُعبَّر عنها بالحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ / أي: وقتَ حياةٍ تُبعثون فيه مِن نومكم الذي [٢٥٧ظ]
هو أخو الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان، ٤٧/٢٥].

وجَعْلُ كونِ الليل لباسًا عبارةً عن سَتْره عن العيون لمَن أراد هربًا مِن عدوّ

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٤. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وعيسى بن عمر.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

أو بيانًا له أو نحو ذلك،[1] ممّا لا مناسبةَ[2] له بالمقام، وكذا جَعْلُ النهار وقتَ التقلّب في تحصيل المعايش والحوائج.[3]

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماوات قويّةَ الخلقِ محكمَةَ البناء لا يُؤثِّر فيها مرّ الدهور وكرّ العصور. والتعبير عن خَلْقها بـ"البناء" مبنيّ على تنزيلها منزلةَ القِباب المضروبة على الخَلْق. وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط؛ بل للتشويق إليه، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا ورد عليها تمكّن عندها فضلَ تمكُّن.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجَعْل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخَلْق، خلا أنّه مختصّ بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عامّ له كما في الآية الكريمة، وللتشريعي أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ [المائدة، ١٠٣/٥]... إلخ، وقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

وأيًّا ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أوّله أو منه أو نحو ذلك ملابَسةً مصحِّحةً لأنّ يتوسَّط بينهما شيء مِن الظروف لغوًا كان أو مستقَرًا، لكن لا على أن يكون عُمدةً في الكلام؛ بل قيدًا فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ [الفرقان، ٥٣/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد، ٣/١٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ الآية [النساء، ٧٥/٤]. فإنّ كلّ واحد مِن هذه الظروف إمّا متعلِّق بنفس الجَعْل، أو بمحذوف وَقَع حالًا مِن مفعوله تقدَّمت عليه لكونه نكرةً.

وأيًّا ما كان فهو قيد في الكلام حتّى إذا اقتضى الحالُ وقوعَه عمدةً فيه يكون الجَعْل متعدِّيًا إلى اثنين هو ثانيهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة، ١٩/٢]، وربّما يشتبه الأمر فيُظنّ أنّه عمدة فيه وهو في الحقيقيّة قيد بأحد الوجهين، كما سلف في قوله تعالى: / ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة، ٣٠/٢]. [٢٥٨و]

---

١ كما ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥١٦/٤.

٢ السياق: وجَعْل... ممّا لا مناسبةَ...

٣ وهو أحد وجهين ذكرهما البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٨٨/٣.

والوهّاج: الوقّاد المتلألئ مِن "وهَجت النارُ" إذا أضاءت، أو البالغُ في الحرارة مِن الوَهْج، والمراد به الشمس. والتعبير عنها بـ"السِّراج" مِن روادف التعبير عن خلق السماوات بـ"البناء".

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾ هي السحائب إذا أعصَرَت، أي: شارفَت أن تعصِرها الرياح فتُمطِر، كما في "أحْصَدَ الزَّرعُ" إذا حان له أن يُحصَد، ومنه "أعصَرتِ الجاريةُ" إذا دنَت أن تحيض، أو الرياح التي حان لها أن تعصِر السحابَ. وقُرئ: "بِالمُعْصِرَاتِ"،[1] ووجهُ ذلك أنّ الإنزال حيث كان مِن المعصرات -سواء أريدَ بها السحائب أو الرياح- فقد كان بها، كما يقال: أعطاه مِن يده وبيده. وقد فُسِّرت ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾ بالرياح ذوات الأعاصير، ووجهُ أنّ الرياح هي التي تنشئ السحابَ وتُدِرّ أخلافه فصلحت أن تُجعل مبدأ للإنزال.[2]

﴿مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ أي: مُنصبًّا بكثرة، يقال: "ثجّ الماءُ"، أي: سال بكثرة، و"ثجّه"، أي: أسالَه، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أفضل الحجّ العَجّ والثجّ»،[3] أي: رَفْع الصوت بالتلبية وصبُّ دماء الهَدي. وقُرئ: "ثَجَّاحًا"[4] بـ"الحاء" بعد "الجيم"، قالوا: "مثاجحُ الماء: مَصابّه".

﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾[5] بذلك الماء ﴿حَبّٗا﴾ يُقتات كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿وَنَبَاتٗا﴾ يُعتلَف كالتبن والحشيش. وتقديم الحبّ مع تأخّره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه؛ لأنّ غالبه غذاء الإنسان.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ الجنّة في الأصل هي المرّة مِن مصدر "جَنَّه" إذا سَتَره، تُطلق على النخل والشجر المُتكاثِف المُظلِّل بالتفاف أغصانه، قال زهير بن أبي سُلمى:

كأنّ عينيّ في غربَيْ مُقتَّلةٍ مِن النواضح تسقي جنّةً سُحُقا[6]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن الزُّبير وقتادة وعكرمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.

[2] الكلام على هذا الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٤.

[3] بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٢٢٥/٥ (٢٩٩٨)؛ وسنن ابن ماجه، ١٤٣/٤ (٢٨٩٦)؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٨٠.

[5] س + أي.

[6] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢٦٦/٢.

وعلى الأرض ذات الشجر،[١] قال الفرّاء: الجنّة: ما فيه النخيل، والفِردوس: ما فيه الكَرْم،[٢] والأوّل هو المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفّةً تداخل بعضها في بعض، قالوا: لا واحد له كـ"الأوزاع" و"الأخياف"، وقيل: الواحد "لِفّ" كـ"كِنّ وأكنان"، أو "لفيف / كـ"شَريف وأشراف". وقيل: هو جمع "لُفّ" جمعِ "لفّاء"، كـ"خُضر وخَضراء". [٢٥٨ظ]
وقيل: جمع "مُلتفّة" بحذف الزوائد.[٣]

واعلم أنّ فيما ذكر مِن أفعاله عزّ وجلّ دلالة على صحّة البعث وحقّيّته مِن وجوه ثلاثة: **الأوّل**: باعتبار قدرته تعالى، فإنّ مَن قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة مِن غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدرَ وأقوى، **الثاني**: باعتبار عِلمه وحكمته، فإنّ مَن أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافعَ جميلة عائدةً إلى الخلق يستحيل أن يُفنيَها بالكلّيّة ولا يجعل لها عاقبةً باقيةً، **والثالث**: باعتبار نفس الفعل، فإنّ اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كلّ يوم، وكذا إخراج الحبّ والنبات مِن الأرض الميتة يعاينونه كلّ حين، كأنّه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقيّةَ والأنفسيّةَ الدالّةَ بفنون الدلالات على حقّيّة البعث الموجِبةَ للإيمان به، فما لكم تخوضون فيه إنكارًا وتتساءلون عنه استهزاءً.

**﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ شروع في بيان سرّ تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، ونوعُ تفصيل لكيفيّة وقوعه وما سيلقَونه عند ذلك مِن فنون العذاب، حسبما جرى به الوعيد إجمالًا، أي: إنّ يوم فصل الله عزّ وعلا بين الخلائق كان في عِلمه وتقديره

---

١ السياق: تُطلق على النخل... وعلى الأرض...
٢ ما وقفتُ عليه في معاني القرآن. ونقله عن الفرّاء البغويُّ في معالم التنزيل، ٧٣/١ (البقرة، ٢٥/٢)؛ وابن عادل في اللباب، ٤٥٠/١ (البقرة، ٢٥/٢).
٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

ميقاتًا وميعادًا لبعث الأوّلين والآخرين، وما يترتَّب عليه مِن الجزاء ثوابًا وعقابًا لا يكاد يتخطّاه بالتقدّم والتأخّر.

وقيل: حدًّا تُوقَّت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه.[1] ولا ريبَ في أنّهما بمَعزِل مِن التقريب الذي أشيرَ إليه، على أنّ الدنيا تنتهي عند النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخةً ثانيةً بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطفُ بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، ولا ضيرَ في تأخّر الفصل عن النفخ، فإنّه زمان ممتدّ يقع في مبدئه النفخة وفي بقيّته الفصل ومباديه وآثاره. و﴿ٱلصُّورِ﴾: هو القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ عليه السلام.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرغ الله تعالى مِن خَلْق السماوات والأرض خَلَق الصُّور فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضعُه على فيه شاخص بصره إلى العرش، متى يؤمَر بالنفخ فيه فيُؤمَر به[2] فينفخ فيه نفخةً لا يبقى عندها في الحياة غيرُ مَن شاء الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يؤمَر بأخرى فينفخ نفخةً لا يبقى معها ميّت إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[3]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جملة قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بغاية سرعة الإتيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[4] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فتُبعثون مِن قبوركم فتأتون إلى الموقف عَقيبَ ذلك مِن غير لبث أصلًا. ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أممًا كلّ أمّة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء، ٧١/١٧]، أو زمرًا [٢٥٩و]
وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال متباينةَ الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

٢ س - فيُؤمر به.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥ (الكهف، ٩٩/١٨)؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٢٨/٩ (المؤمنون، ٨٧/٢٧).

٤ م س: فقلنا.

عن معاذ رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال عليه السلام: «يا معاذُ سألتَ عن أمر عظيم مِن الأمور»، ثمّ أرسل عينيه وقال: «تُحشَر عشرةُ أصناف مِن أمّتي: بعضُهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورة الخنازير، وبعضُهم مُنكّسون أرجلهم فوق وجوههم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُميٌ، وبعضُهم صُمّ بُكمٌ، وبعضُهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلّاة على صدورهم يسيل القيح مِن أفواههم يتقذّرهم أهلُ الجَمْع، وبعضُهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضُهم مُصلّبون على جذوع مِن نار، وبعضُهم أشدّ نتنًا مِن الجِيَف، وبعضُهم مُلبَسون جِبابًا سابغةً مِن قَطِران لازقةً بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القِرَدة فالقتّات مِن الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهلُ السُّحت، وأمّا المُنكّسون على وجوههم فأكَلَة الرِّبا، وأمّا العُمي فالذين يجورون في الحُكم، وأمّا الصمّ البُكم فالمُعجَبون بأعمالهم، وأمّا الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالَهم، وأمّا الذين قُطِّعت أيديهم وأرجلُهم فهم الذين يؤذون جيرانهم، وأمّا المصلَّبون على جذوع مِن نار فالسُّعاة بالناس إلى السلطان، وأمّا الذين هم أشدّ نَتْنًا مِن الجِيَف فالذين يتّبعون الشهواتِ واللذّاتِ ومنعوا حقّ الله تعالى في أموالهم، وأمّا الذين يُلبَسون الجِباب فأهل الكِبر والفخر والخُيلاء».[1]

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وقُرئ: "فُتِحَتْ"[2] بالتشديد، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: كثُرت أبوابها المُفتّحة لنزول الملائكة نزولًا غيرَ معتاد حتّى صارت كأنّها ليست إلّا أبوابًا مفتّحةً، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر، ١٢/٥٤]، كأنّ كلّها عيونٌ متفجّرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وهو الغمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾

---

[1] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٢٨-٣١٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤-٥١٨.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

أي: أمرُه وبأسُه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة، ٢١٠/٢]. وقيل: الأبواب: الطرق والمَسالك، أي: تُكشَط فينفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدّها شيء.[١]

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الجوّ على هيئاتها بعد قلعها مِن مقارّها، / كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧] أي: تراها رأيَ العين ساكنةً في أماكنها والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسيّرها الرياح سَيرًا حثيثًا، وذلك أنّ الأجرام العِظام إذا تحرّكتْ نحوًا مِن الأنحاءِ لا تكاد تتبيَّن حركتها وإن كانت في غاية السرعة لا سيّما مِن بعيد،[٢] وعليه قول مَن قال: [٢٥٩ظ]

بـأرعَـنَ مِـثـلِ الـطَّـود تحسب أنّـهـمْ    وقـوفٌ لِـحَـاجٍ والـرِّكـاب تُـهَـمْلِجُ[٣]

وقد أُدمِج في هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخُل الأجزاء وانتفاشها، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ٥/١٠١]. يُبدِّل الله عزّ وجلّ الأرض ويُغيّر هيأتها ويُسيِّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حَشْر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها، ثمّ يفرّقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارت بَعْدَ تَسييرها مثلَ السراب، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة، ٥/٥٦-٦] أي: غُبارًا منتشِرًا، وهي وإن اندكّت وانصدعَت عند النفخة الأولى، لكنّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ١٠٥/٢٠-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [ابراهيم، ٤٨/١٤]، فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيلُ عليه السلام وبُروزَ الخلق لله تعالى لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٢ الكلام بلفظ قريب في الغريبين للهروي، ٣٦٢/١.

٣ البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ١٤٨ وهو له في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٣٦١؛ وبلا عزو في الغريبين للهروي، ٣٦٢/١. وقصد به جيشًا يُشبِه الجبل، والجيش الأرعن: هو المضطرب لكثرته. لسان العرب لابن منظور، «رعن».

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ شروع في تفصيل أحكام الفَصْل الذي أضيفَ إليه "اليوم" إثر بيانِ هَوله. ووجهُ تقديم بيانِ حال الكفّار غَنيّ عن البيان. والمِرصاد: اسمٌ للمكان الذي يُرصَد فيه كـ"المِضمار" الذي هو اسم للمكان الذي يُضمَّر فيه الخيل، و"المِنهاج" اسم للمكان الذي يُنهَج فيه، أي: أنّها كانت في حُكم الله تعالى وقضائه موضعَ رَصد يَرصُد فيه خَزَنةُ النار الكفّار ليُعذّبوهم فيها.

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ متعلِّق بمضمَر هو إمّا نعت لـ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: كائنًا للطاغين، وقوله تعالى: ﴿مَـَٔابًا﴾ بدلٌ منه، أي: مَرجِعًا يرجعون إليه لا محالةَ، وإمّا حال مِن ﴿مَـَٔابًا﴾ قُدِّمت عليه لكونه نكرةً، ولو تأخّرت لكانت صفةً له. / وقد جُوِّز [٢٦٠و] أن يتعلَّق بنفس ﴿مَـَٔابًا﴾، على أنّها مِرصاد للفريقين مآبٌ للكافرين خاصّة.[١] ولا يخفى بُعده؛ فإنّ المتبادر مِن كونها مِرصادًا لطائفة كونُهم معذَّبين بها، وقد قيل: إنّها مِرصاد لأهل الجنّة يرصُدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها وهي مآب للطاغين.[٢] وقيل: "المِرصاد" صيغة مبالغة مِن الرصد، والمعنى أنها مُجِدَّة في ترصُّد الكفار لئلّا يشذّ منهم أحد.[٣] وقرئ: "أَنَّ"[٤] بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنّها مِرصاد للطاغين.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ حال مقدَّرة مِن المستكِنّ في ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾. وقُرئ: "لَبِثِينَ".[٥] وقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للَبْثهم، أي: دهورًا متتابعةً كلّما مضى حُقب[٦] تبِعه حُقب آخرُ إلى غير نهاية، فإنّ الحُقب لا يكاد يستعمل إلّا حيث يُراد تتابع الأزمنة

١ هذه الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٦٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠٤/٢٠.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٩/٣.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.
٥ قرأ بها حمزة ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.
٦ الحُقْب والحُقُب: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر مِن ذلك. والدهر. وقيل: السَّنة. وجمعه حِقاب، كـ"قُفّ وقِفاف". لسان العرب لابن منظور، «حقب».

وتواليها، فليس فيه ما يدلّ على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحُقب ثمانون سنةً أو سبعون ألفَ سنة.[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ جملةٌ مبتدأة، أُخبِر عنهم بأنّهم لا يذوقون فيها شيئًا مِن برد ورَوح يُنفِّس عنهم حرَّ النار ولا مِن شراب يُسكِّن مِن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميمًا وغسّاقًا. وقيل: البرد النوم.[٢] وقُرئ: "غَسَاقًا"[٣] بالتخفيف، وكلاهما ما يسيل مِن صَديدهم.

﴿جَزَآءً﴾ أي: جوّزوا بذلك جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ ذا وفاق لأعمالهم، أو نفسَ الوِفاق مبالغةً، أو وافقها وِفاقًا. وقُرئ: "وِفَّاقًا"[٤] على أنّه "فعّال" مِن "وَفِقَه كذا"، أي: لاقَه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، أي: كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا بأعمالهم.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا مُفرِطًا، ولذلك كانوا مصرِّين على الكُفر وفنون المعاصي. و"فعّال" مِن باب "فعّل" شائع فيما بين الفصحاء. وقُرئ بالتخفيف[٥] وهو مصدر "كَذَب"، قال:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ[٦]

وانتصابه إمّا بفعله / المدلول عليه بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: وكذّبوا بآياتنا فكذَبوا [٢٦٠ظ]
كِذَابًا، وإمّا بنفس ﴿كَذَّبُواْ﴾ لتضمُّنه معنى "كَذَبوا"، فإنّ كلّ مَن يكذِّب بالحقّ فهو كاذب. وقُرئ: "كُذَّابًا"[٧] وهو جمع "كاذب"، فانتصابه على الحاليّة، أي:

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مناذر وابن مِقسَم عن الدُّوري عن الكسائي. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٨١.

٦ للأعشى في جامع البيان للطبري، ٤٣/٢٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٢٣؛ وليس في ديوانه؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٠/٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والماجشون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٨١.

كذّبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكُذّاب بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب فيُجعل صفةً لمصدر ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: تكذيبًا كُذّابًا مفرطًا كِذبُه.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها أعمالهم. وانتصابه بمضمر يفسّره ﴿أَحْصَيْنَهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. وقُرئ بالرفع[١] على الابتداء. ﴿كِتَبًا﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿أَحْصَيْنَهُ﴾ لِما أنّ الإحصاء والكِتْبة مِن وادٍ واحد،[٢] أو لفعله المقدَّر، أو حال بمعنى مكتوبًا في اللوح أو في صحف الحَفَظة، والجملة اعتراض.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، وفي الالتفات المنبئ عن التشديد في التهديد وإيرادِ ﴿لَن﴾ المفيدة لكون تَرْك الزيادة مِن قبيل ما لا يدخل تحت الصحّة، مِن الدلالة[٣] على تبالُغ الغضب ما لا يخفى. وقد رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أنّ هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النّار.[٤]

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شروع في بيان محاسنِ أحوال المؤمنين إثرَ بيان سوء أحوال الكفرة، أي: إنّ للذين يتّقون الكفرَ وسائر قبائح أعمال الكفَرة فوزًا وظفَرًا بمباغيهم أو موضعَ فوز. وقيل: نجاةً ممّا فيه أولئك، أو موضعَ نجاة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا﴾ أي: بساتينَ فيها أنواع الأشجار المثمِرة وكرومًا، بدلٌ مِن ﴿مَفَازًا﴾.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نساءً فَلَكت ثُدِيُهُنّ، وهنّ النواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: لِدَات.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: مُترَعةً، يقال: "أدهَق الحوضَ"، أي: مَلأه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٢.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.
٣ السياق: وفي الالتفات... مِن الدلالة...
٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٣٦/٢٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة. وقيل: في الكأس.[١] ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي: لا ينطقون بلَغْو ولا يكذِّب بعضُهم بعضًا. وقُرئ: "كِذَابًا"[٢] بالتخفيف، أي: لا يكذِبه أو لا يُكاذِبه.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر مؤكِّد منصوب بمعنى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾،[٣] فإنّه في قوّة أن يقال: جازى المتّقين بمَفازٍ جزاءً كائنًا مِن ربّك. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المُنبِئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا مع الإضافة / إلى ضميره [٢٦١و] صلّى الله عليه وسلّم مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿عَطَآءً﴾ أي: تفضّلًا وإحسانًا منه تعالى؛ إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل مِن ﴿جَزَآءً﴾.

﴿حِسَابًا﴾ صفة لـ﴿عَطَآءً﴾ بمعنى كافيًا على أنّه مصدر أقيمَ مُقام الوصف، أو بُولغ فيه مِن "أحسَبه الشيء" إذا كفَاه حتّى قال: "حسبي". وقيل: على حسب أعمالهم. وقُرئ: "حَسَّابًا"[٤] بالتشديد على أنّه بمعنى المُحسِب كالدّرّاك بمعنى المُدرِك.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة له. وقيل: صفة للأوّل.[٥] وأيًا ما كان ففي ذِكر ربوبيّته تعالى للكلّ ورحمته الواسعة إشعارٌ بمَدار الجزاءِ المذكور.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ استئناف مقرِّر لِما أفاده الربوبيّة العامّة مِن غاية العظَمة والكبرياء واستقلالِه تعالى بما ذُكر مِن الجزاء والعطاء

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١١٤/٢٠.
٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.
٣ في الآية الحادية والثلاثين مِن هذه السورة.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١.
٥ الوجه في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

مِن غير أن يكون لأحد قُدرة عليه. وقُرئ برفعهما،[١] فقيل: على أنّهما خبران لمبتدأ مضمَر. وقيل: الثّاني نعت للأوّل. وقيل: الأوّل مبتدأ والثاني خبره، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر آخرُ، أو هو الخبر و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة للأوّل. وقيل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ حال لازمة. وقيل: الأوّل مبتدأ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبره، والجملة خبرٌ للأوّل، وحصل الربطُ بتكرير المبتدأ بمعناه على رأي مَن يقول به.[٢]

والأوجهُ أن يكون كلاهما مرفوعًا على المدح، أو يكونَ الثاني نعتًا للأوّل، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ استئنافًا على حاله، ففيه ما ذُكر مِن الإشعار بمَدار الجزاء والعطاء كما في البدليّة؛ لِما أنّ المرفوع أو المنصوب مدحًا تابع لِما قبله معنى، وإن كان منقطعًا عنه إعرابًا، كما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة.

وقُرئ بجرّ الأوّل على البدليّة ورَفْعِ الثاني[٣] على الابتداء والخبرُ ما بعده، أو على أنّه خبرٌ لمبتدأ مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثانٍ أو حال.

وضمير ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السماوات والأرض، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى مِن تلقاء أنفسهم -كما ينبئ عنه لفظ المُلك- خطابًا ما في شيء ما. والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء مِن نَقْص العذاب أو زيادةِ الثواب مِن غير إذنه على أبلغ وجه وآكدِه. وقيل: ليس في أيديهم ممّا يُخاطب الله به ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطابٌ واحدٌ يتصرّفون فيه تصرُّف الملّاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه.[٤]

[٢٦١ظ] ﴿يَوْمَ يَقُومُ / ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ قيل: الروح خلقٌ أعظم مِن الملائكة وأشرفُ منهم وأقربُ مِن ربّ العالمين. وقيل: هو مَلَك، ما خَلَق الله عزّ وجلّ بعد العرش خَلْقًا أعظمَ منه.[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه إذا كان يوم القيامة

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٢ هذه الأقوال الخمسة كلُّها في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. ومعناهما عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٧/٢٤.

قام هو وحدَه صفًّا والملائكة كلّهم صفًّا.[١] وعنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الرُّوح: جند مِن جنود الله تعالى ليسوا ملائكةً لهم رءوس وأيدٍ وأرجُل يأكلون الطعام»، ثمّ قرأ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ الآية.[٢] وهذا قول أبي صالح ومجاهدٍ، قالوا: ما ينزل مِن السماء مَلَك إلّا ومعه واحد منهم. نقله البغوي.[٣] وقيل: هم أشراف الملائكة. وقيل: هم حفَظة على الملائكة.[٤] وقيل: جبرائيل عليهم السلام.[٥]

و﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفِّين. وقيل: هما صفّان الروح صفّ واحدًا أو متعدِّدًا، والملائكة صفّ. وقيل: صفوف. وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر، ٢٢/٨٩]. وقيل: يقوم الكلّ صفًّا واحدًا.[٦] و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بدل مِن ضمير ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، العائد إلى أهل السماوات والأرض الذين مِن جملتهم الروح والملائكة.

وذِكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظَمة سلطانه وكبرياء ربوبيَّته وتهويلِ يوم البعث الذي عليه مدارُ الكلام مِن مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها. والجملة استئناف مقرِّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾... إلخ، ومؤكِّد له على معنى أنّ أهل السماواتِ والأرض إذا لم يقدروا يومئذ على أن يتكلَّموا بشيء مِن جنس الكلام إلّا مَن أذن الله تعالى له منهم في التكلّم وقال ذلك المأذون له قولًا صوابًا، أي: حقًّا، فكيف يملِكون خِطاب ربّ العزَّة مع كونه أخصّ مِن مطلق الكلام وأعزّ منه مَرامًا.

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٨/٢٤؛ وبلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٦/٢٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٤٦/٢٣؛ وبمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨. ومِن قوله: "عن ابن عبّاس" إلى هنا مع النصّ على النقل عن البغوي بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١١٧/٢٠-١١٨.

٤ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

٥ مرويّ عن الضحّاك والشعبي في جامع البيان للطبري، ٤٤٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٦ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

لا على معنى أنّ الروح والملائكة مع كونهم أفضلَ الخلائق وأقربَهم مِن الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلّموا بما هو صواب مِن الشفاعة لمَن ارتضى إلّا بإذنه فكيف يملِكه غيرهم؟ كما قيل.[١] فإنّه مؤسَّس على قاعدة الاعتزال فمَن سلكه مع تجويزه أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفًا لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾ فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون.

[٢٦٢و] وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾... إلخ، منصوب / على أصل الاستثناء،[٢] والمعنى لا يتكلّمون إلّا في حقّ شخص أذِن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابًا، أي: حقًّا هو التوحيد. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موقع الإضمار للإيذان بأنّ مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنّ أحدًا يستحقّه عليه سبحانه وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد المشار إليه للإيذان بعلوّ درجته وبُعد منزلته في الهَول والفخامة. ومحلُّه الرفع على الابتداء خبره ما بعده، أي: ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الروح والملائكة مُصطفّين غيرَ قادرين هم وغيرهم على التكلّم مِن الهَيبة والجَلال. ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت المتحقِّق لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه ولا عاطف يَثنيه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن شرط محذوف، ومفعولُ المشيئة محذوف لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاءِ وانتفاءِ الغرابة في تعلّقه بها، حسب القاعدة المستمرّة. و﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿مَـَٔابًا﴾، قدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل، كأنّه قيل: وإذا كان الأمر كما ذُكر مِن تحقّق اليوم المذكور لا محالةَ فمَن شاء أن يتّخذ مرجعًا إلى ثواب ربّه الذي ذُكر شأنه العظيم فعَل ذلك بالإيمان والطاعة. وقال قتادة: ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: سبيلًا.[٣] وتعلُّق الجارّ به لِما فيه مِن معنى الإفضاء والإيصال، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، ٩٧/٣].

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.
٣ جامع البيان للطبري، ١٥٣/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١١٩/٢٠.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ أي: بما ذُكر في السورة مِن الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده مِن الدّواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن. ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عذاب الآخرة، وقُربه لتحقّق إتيانه حتمًا، ولأنّه قريب بالنسبة إليه تعالى، وإن رأوه بعيدًا وسيَرَونه قريبًا لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٤٦/٧٩].

وعن قتادةَ: هي عقوبة الدنيا؛ لأنّه أقرب العذابين. / وعن مقاتل: هو قتلُ قريش يوم بدر.[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، فإنّه إمّا بدل مِن ﴿عَذَابٗا﴾، أو ظرفٌ لمضمر هو صفة له، أي: عذابًا كائنًا يومَ ينظر المرء، أي: يُشاهِد ما قدَّمه مِن خير أو شرّ، على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة منصوبة بـ﴿يَنظُرُ﴾ والعائدُ محذوف، أو ينظر أيَّ شيء قدّمت يداه، على أنّها استفهاميّة منصوبة بـ﴿قَدَّمَتۡ﴾. [٢٦٢ظ]

وقيل: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ عبارة عن الكافر، وما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ ظاهر وُضع موضعَ الضمير لزيادة الذمّ.[٢] قيل: معنى تمنّيه: ليتني كنت ترابًا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلَّف، أو ليتني كنتُ ترابًا في هذا اليوم فلم أبعَث. وقيل: يحشُر الله تعالى الحيوان فيقتصّ للجمّاء مِن القَرْناء ثمّ يردّه ترابًا، فيَودّ الكافر حالَه. وقيل: الكافر إبليسُ يرى آدمَ وولده وثوابهم، فيتمنّى أن يكون الشيءَ الذي احتقره حين قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف، ١٢/٧].[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عمّ يتساءلون سقاه الله تعالى بردَ الشراب يوم القيامة».[٤]

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/٢٠.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.
٣ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٢/٢٨ (النبأ، ١/٧٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١١/٤ (النبأ، ١/٧٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

# سورة النبأ

وتسمّى سورة: عمَّ، وعمَّ يتساءلون، والتساؤل، والمعصرات.

وهي مكية بالاتفاق، وآيُها إحدى وأربعون في المكّي والبصري، وأربعون في غيرهما.

ووَجْهُ مناسَبَتِها لِمَا قبلَها اشتمالُها على إثبات القدرة على البعث الذي دلَّ ما قبلُ على تكذيب الكفرة به، وفي «تناسق الدرر»[1]: وجه اتصالها بما قبلُ تناسُبها معها في الجمل، فإنَّ في تلك: (أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ) (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ) (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا) إلخ، وفي هذه (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا) إلخ، مع اشتراكها والأربع قبلَها في الاشتمال على وصف الجنة والنار، وما وعد «المدَّثِّر»[2]، وأيضاً في سورة «المرسلات»: (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ) وفي هذه: (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا) إلخ، ففيها شرحُ يوم الفصل المجملِ ذكرُه فيما قبلها. اهـ.

وقيل: إنه تعالى لما ختمَ تلك بقوله سبحانه (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ) وكان المرادُ بالحديث فيه القرآنَ، افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاءِ به. وهو مبنيٌّ على ما رُوي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنَّ المرادَ بالنبأ العظيم القرآنُ. والجمهور على أنه البعثُ[3]. وهو الأنسب بالآيات بعدُ كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ص٩١.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في تناسق الدرر: وما عدا المدثر في الاشتمال على يوم القيامة وأهواله، وعلى ذكر بدء الخلق وإقامة الدليل على البعث.

(٣) وهو أيضاً مروي عن قتادة. ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٦، والدر المنثور ٦/ ٣٠٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ﴾ أصله: عمَّا، على أنَّه حرف جرٍّ دخل على «ما» الاستفهامية فحذفت الألف، وعُلِّل بالتفرقة بينها وبين الخبرية، والإيذانِ بشدَّة الاتصال، وكثرةِ الدوران. وحالُ العلل النحوية معلومٌ.

وقد قرأ عبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى بالألف على الأصل[١]، وهو قليل الاستعمال، وقال ابن جنِّي[٢]: إثباتُ الألف أضعفُ اللُّغتين، وعليه قوله:

علـى مـا قـامَ يـشـتـمـنـي لـئـيـمٌ        كـخِـنْـزيـرٍ تـمـرَّغَ فـي رَمـادِ[٣]

والاستفهامُ للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهولِه وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أيِّ شيءٍ عظيمِ الشأن ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ الضميرُ لأهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم؛ للاستغناء عنه بحضورهم حسًّا، مع ما في التَّركِ ـ على ما قيل ـ من التحقير والإهانة؛ لإشعاره بأنَّ ذكرَهم مِمَّا يُصان عنه ساحة الذكر الحكيم. ولا يتوهَّم العكس؛ لمنع المقام عنه.

وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً، لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسمَّاه، بل عن وقوعه الذي هو حالٌ من أحواله ووصفٌ من أوصافه.

و«ما» كما مرَّ غير مرَّةٍ وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسمَّيات أسمائها، لكنَّها قد يُطلب بها الصفةُ والحالُ، فيقال: ما زيد، ويجاب بـ: عالم، أو: طبيب.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٧، والبحر ٨/ ٤١٠.

(٢) في المحتسب ٢/ ٣٤٧.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩. ورواية ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٤٧، وابن هشام في المغني ص٣٩٤: تمرّغ في دَمَان. والدَّمَان: الرماد وزناً ومعنًى. وينظر الخزانة ٦/ ١٠٢.

وقيل: كانوا يسألون الرسولَ ﷺ والمؤمنين استهزاءً، فالتساؤل متعدٍّ ومفعولُه مقدَّرٌ هنا، وحذف لظهوره، أو لأنَّ المستعظَمَ السؤالُ بقطع النظر عمَّن سأل، أو لصون المسؤول عن ذكره مع هذا السائل. وتحقيقُ ذلك ـ على ما في «الإرشاد» ـ أنَّ صيغة التفاعل في الأفعال المتعدية [موضوعة] لإفادة صدور الفعل عن المتعدّد ووقوعِه عليه، بحيث يصيرُ كلُّ واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، لكنه يرفع المتعدِّدَ على الفاعلية ترجيحاً لجانب فاعليته، وتُحال مفعوليتُه على دلالة الفعل، كما في قولك: تراءى القومُ، أي: رأى كلُّ واحدٍ منهم الآخرَ. وقد تجرَّد عن المعنى الثاني، فيراد بها مجرَّدُ صدور الفعل عن المتعدِّد عارياً عن اعتبار وقوعه عليه، فيذكر للفعل حينئذٍ مفعول، كما في قولك: تراءَوُا الهلالَ. وقد يحذف [ظهوره] كما فيما نحن فيه، فالمعنى: عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء القومُ الرسولَ ﷺ والمؤمنين. وربَّما تجرَّد عن صدور الفعل عن المتعدِّد أيضاً فيراد بها تعدُّده باعتبار تعدُّد متعلَّقِه مع وحدة الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥](١).

وذكر بعض المحقِّقين أنَّه قد يكون لصيغة التفاعل على الوجه الأول مفعولٌ أيضاً، لكنَّه غيرُ الذي فعلَ به مثلَ فعلِه، كما في: تعاطيا الكأسَ، وتفاوضا الحديثَ. وعليه قول امرئ القيس:

فلمَّا تنازَعْنا الحديثَ وأَسمَحَتْ هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَماريخَ ميَّالِ(٢)

فمن قال أنَّ تَفَاعلَ لا يكون إلَّا من اثنين ولا يكون إلَّا لازماً، فقد غلط كما قال البَطَلْيوسي في «شرح أدب الكاتب»(٣) إن أراد ذلك على الإطلاق. وليت شعري كيف يصحُّ ذلك مع أنَّ مجيءَ تَفَاعلَ بمعنى فَعَل غيرَ متعدِّد الفاعل ـ كتوانى زيدٌ، وتَدَانى الأمر، وتَعالى الله عمَّا يشركون ـ كثيرٌ جدًّا، وكذا مجيئه متعدّياً إلى غير الذي فَعَلَ به مثلَ فعلِه، كما سمعت.

---

(١) إرشاد العقل السليم وهو تفسير أبي السعود ٩/ ٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٢. قال شارح الديوان: تنازعنا الحديث: حدثتني وحدثتها، أسمحت: انقادت وسهُلت بعد امتناعها. هصرتُ: جذبت، وأراد بالغصن جسمها لنَعْمته، وشبّه شعرها بشماريخ النخل لتداخله وغزارته. اهـ.

(٣) ٣/ ٣٩٥-٣٩٦.

وجُوِّز أن يكون ضمير «يتساءلون» للناس عموماً؛ سواءٌ كانوا كفَّار مكة وغيرهم من المسلمين، وسؤالُ المسلمين ليزدادوا خشيةً وإيماناً، وسؤالُ غيرهم استهزاءً ليزدادوا كفراً وطغياناً. وهو خلاف ما يقتضيه ظاهرُ الآيات بعدُ.

وقيل: كان التساؤلُ عن القرآن. وتعقب بأنَّ قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ) إلخ ظاهرٌ في أنه كان عن البعث، وهو مرويٌّ عن قتادة أيضاً؛ لأنه من أدلته. وأجيب بأنَّ تساؤلَهم عنه واستهزاءَهم به واختلافهم فيه بأنَّه سحرٌ أو شعرٌ كان لاشتماله على الأخبار بالبعث، فبعد أن ذكر ما يفيد استعظامَ التساؤل عنه تعرَّضَ لدليل ما هو منشأٌ لذلك التساؤل. وفيه بعدٌ.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ بيانٌ لشأن المسؤول عنه إثْرَ تفخيمه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلةَ المستفهمين، فإنَّ إيراده على طريقة الاستفهام من علَّام الغيوب؛ للتنبيه على أنه ـ لانقطاع قرينِه وانعدام نظيره ـ خارجٌ عن دائرة علوم الخلق، خليقٌ بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه، كأنَّه قيل: عن أيِّ شيءٍ يتساءلون، هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: «عن النبإ العظيم». على منهاج: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فـ «عن» متعلِّقةٌ بما يدلُّ عليه المذكورُ من مضمَرٍ حقُّه ـ على ما قيل ـ أنْ يقدَّرَ بعدها؛ مسارعةً إلى البيان ومراعاةً لترتيب السؤال. وإلى تعلُّقه بما ذُكر ذهب الزجاج، وهو الذي تقتضيه جزالة التنزيل.

وقال مكِّي[١]: إنَّ ذلك بدلٌ من «ما» الاستفهامية بإعادة حرف الجرِّ. وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا يصحُّ، فإنَّ معنى الأول: عن النبأ العظيم أم عن غيره؟ والبدلُ لا يطابقه أُعيدَ الاستفهامُ أو لا. وقال الخفاجيُّ[٢]: البدليةُ جائزةٌ، ولا يلزم إعادة الاستفهام؛ لأنَّه غيرُ حقيقيٍّ، ولا أن يكون البدلُ عينَ الأول؛ لجواز كونِه بدلَ بعضٍ.

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يتساءلون» المذكور، و«عمَّ» متعلِّقٌ بمضمرٍ مفسَّرٍ به. وأيّد

(١) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٩٤.
(٢) في حاشيته ٨/ ٣٠١.

ذلك بقراءة الضحاك ويعقوب وابن كثير في رواية: «عمَّه» بهاء السكت[١]، ووجهُه أنَّه على الوقف. وهو يدلُّ على أنَّه غيرُ متعلِّق بالمذكور؛ لأنه لا يحسنُ الوقف بين الجارِّ والمجرور ومتعلَّقه؛ لعدم تمام الكلام. ولعلَّ مَنْ ذهب إلى الأول يقول: إنَّ إلحاقَ الهاء مبنيٌّ على إجراء الوصل مجرى الوقف.

وقيل: «عن» الأولى للتعليل، وهي والثانية متعلِّقتان بـ «يتساءلون» المذكور، كأنَّه قيل: لم يتساءلون عن النبأ العظيم. ونقله ابنُ عطية[٢] عن أكثر النحاة.

وقيل: «عن النبأ» متعلِّقٌ بمحذوف، وهناك استفهامٌ مضمر، كأنه قيل: عمَّ يتساءلون، أيتساءلون عن النبأ العظيم؟

ووصفُ النبأ ـ وهو الخبر الذي له شأنٌ ـ بالعظيم لتأكيد خطره، ووصفُه بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ للمبالغة في ذلك، والإشعارِ بمدار التساؤل عنه.

و«فيه» متعلِّقٌ بـ «مختلفون»، قُدِّم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل.

وجعل الصلة جملةً اسمية للدلالة على الثبات، أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمن جازمٍ باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إلخ [المؤمنون: ٣٧]، وشاكٍّ يقول: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. وقيل: منهم من ينكر المَعَادَيْن معاً كهؤلاء، ومنهم من ينكر المَعادَ الجسمانيَّ فقط، كجمهور النصارى.

وقد حمل الاختلاف على الاختلاف في كيفية الإنكار، فمنهم مَنْ ينكره لإنكاره الصانعَ المختارَ تعالى شأنه، ومنهم مَنْ ينكره بناءً على استحالة إعادة المعدوم بعينه. وقيل: الاختلافُ بالإقرار والإنكار، أو بزيادة الخشية والاستهزاء، على أنَّ ضمير «يتساءلون» وضمير «هم» للناس عامةً. وقيل: يجوز أن يكون الاختلافُ بالإقرار والإنكار، على كون ضمير «يتساءلون» للكفار أيضاً، بأن يجعل ضمير «هم» للسائلين والمسؤولين.

---

(١) النشر ٢/ ١٣٤، والبحر ٨/ ٤١٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٣.

والكلُّ كما ترى وإن تفاوتت مراتبُ الضعف، والمعوَّلُ عليه الأول.

وقال مفتي الديار الرومية[١]: الذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحملَ اختلافُهم في البعث على مخالفتهم للنبيِّ ﷺ؛ بأن يعتبرَ في الاختلاف محضُ صدور الفعل عن المتعدّد، حسبما قيل في التساؤل، فإنَّ الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان ـ كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل ـ يجري في كلٍّ منهما ما يجري في الأخرى، لا على مخالفة بعضِهم لبعض على أن يكون كلٌّ من الجانبين مخالِفاً ـ اسم فاعل ـ ومخالَفاً ـ اسم مفعول ـ لأنَّ الكلَّ وإن استحقَّ ما يذكر بعدُ من الردع والوعيد، لكنَّ استحقاق كلِّ جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر ـ إذ لا حقيَّةَ في شيءٍ منهما حتى يستحقَّ مَنْ يخالفه المؤاخذةَ ـ بل لمخالفته عليه الصلاة والسلام، فكأنه قيل: الذي هم فيه مخالفون للنبيِّ ﷺ. انتهى.

وفيه أنه خلافُ الظاهر، وما ذكره من التعليل لا يخلو عن شيء.

وقرأ عبد الله وابن جبير: «تسَّاءلون» بغير ياءٍ وشدِّ السين[٢]، على أنَّ أصله تتساءلون بتاء الخطاب فأدغمت التاء الثانية في السين.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن التساؤل على الوجهَيْن المتقدِّمَيْن فيه. وقيل: عنه وعن الاختلاف بمعنى مخالفة الرسول ﷺ في أمر البعث، وتعقِّب بأنَّ الجملة التي تضمَّنته لم تُقصد لذاتها، فيبعدُ اعتبار الرَّدع إلى ما فيها.

وقوله سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ وعيدٌ لأولئك المتسائلين المستهزئين بطريق الاستئناف، وتعليلٌ للردع.

والسين للتقريب والتأكيد. ومفعولُ «يعلمون» محذوفٌ، وهو ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات.

والتعبيرُ عن لقائه بالعلم؛ لوقوعه في معرض التساؤل، والمعنى: ليرتدعوا عمَّا هم عليه فإنَّهم سيعلمون عمَّا قليلٍ حقيقةَ الحال إذا حلَّ بهم العذابُ والنكال، ومثلُ

(١) هو أبو السعود، والكلام في تفسيره ٩/ ٨٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر ٨/ ٤١١.

هذا تقديرُ المفعول جزاءَ التساؤل. وقيل: هو ما ينبئُ عنه الظاهر وهو وقوعُ ما يتساءلون عنه، على معنى: سيعلمون ذلك فيخجلون من تساؤلهم واستهزائهم بين يدي ربِّهم عزَّ وجل. وإلَّا لم يظهر كون ما ذكر وعيداً.

ومَنْ جعل ضمير «يتساءلون» للناس عامةً جعل ما هنا من باب التغليب؛ لأنَّه لغير المؤمنين بالبعث الجازمين به.

وجوَّزَ بعضُهم كونَ «كلا سيعلمون» ردعاً ووعداً على الارتداع، والمرادُ: ليرتدعوا فإنَّهم سيعلمون مثوبات الارتداع. وأنت تعلم أنَّ ذلك شائعٌ في الوعيد، وهو المتبادَر منه في أمثال هذه المقامات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ قيل: تكريرٌ لما قبله من الردع والوعيد؛ للمبالغة، و«ثم» للتفاوت في الرتبة، فكأنه قيل: لهم يوم القيامة ردعٌ وعذابٌ شديدان، بل لهم يومئذٍ أشدُّ وأشدُّ[1]. وبهذا الاعتبار صار كأنه مغايرٌ لما قبله فعُطف عليه، وابنُ مالك[2] يقول في مثله: إنَّه من التوكيد اللَّفظي وإنْ توسَّط حرفُ العطف، فلا تغفل.

وقيل: الأول إشارةٌ إلى ما يكون عند النَّزْع وخروج الروح من زجرِ ملائكةِ الموت عليهم السلام، وملاقاةِ كُربات الموت وشدائده، وانكشافِ الغطاء. والثاني: إشارةٌ إلى ما يكون في القيامة من زجرِ ملائكة العذاب عليهم السلام، وملاقاةِ شديد العقاب، فـ «ثم» في محلِّها لما بينهما من البعد الزمانيِّ ولا تكرارَ فيه.

والظاهر أنَّ العطفَ ـ على هذا وما قبلَه ـ على مجموع «كلا سيعلمون».

وتوهَّم بعضُهم من كلام بعض الأجلَّة أنَّ العطف على «سيعلمون»، وأورد عليه أنَّ «ثم» إذا كانت للتراخي الزماني يلزمُ الفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبيٍّ، بخلاف ما إذا كانت للتراخي الرتبي، ووجّه لدفع التخصيص بلا مخصِّص أنَّه على الثاني يُفهم تفاوتُ الرتبة بين الردْعَيْن كتفاوتها بين الوعيدين لتبعيَّة الردع

(١) جاء في هامش الأصل: وتعقّب بأن الردع بمنزلة النهي وهو في الدنيا، فتأمل. انتهى منه.
(٢) ينظر شرح التسهيل ٣/ ٣٠٥.

للوعيد، فلا تكون «كلا» الثانية أجنبيةً، بخلاف الأول[١] فإن التراخي عليه إنَّما يتحقَّقُ فيما يتحقَّقُ فيه الزمانُ، وليس هو إلا «سيعلمون» دون «كلا» فتكون هي أجنبيةً، ثم قال ذلك المتوهِّمُ: ولا يبعدُ أن يقال: الردع الأول عن التساؤل والثاني عن الإنكار، أي: الصريح، وتفاوتُ ما بينهما يقتضي العطفَ بـ «ثم»، والكلُّ كما ترى.

وقيل: متعلَّقُ العلم في الأول البعثُ، وفي الثاني الجزاءُ على إنكاره، و«ثم» في محلِّها، أي: كلَّا سيعلمون حقيَّةَ البعث إذا بُعثوا، ثمَّ كلَّا سيعلمون الجزاءَ على إنكاره إذا دخلوا النارَ وعوقبوا.

وجوّز أن يكون المتعلَّقُ مختلفاً، و«ثم» للتراخي الرتبي بأن يكونَ المعنى: سيعلم الكفار أحوالَهم ثمَّ سيعلمون أحوالَ المؤمنين، والأول إشارةٌ إلى العذاب الجسماني، والثاني إلى العذاب الروحانيّ الذي هو أشدُّ وأخزى، وأن يكون فاعلُ «سيعلم»، في الموضعين مختلفاً بناءً على أنَّ ضمير «يتساءلون» للناس عامةً و«ثم» لذلك أيضاً، بأن يكون المعنى: سيعلمُ المؤمنون عاقبةَ تصديقهم ثمَّ سيعلم الكفَّارُ عاقبةَ تكذيبهم، فيكون الأول وعداً للمؤمنين والآخر وعيداً للكافرين وهما متفاوتان رتبةً، ولا يخفى عليك ما في ذلك.

وقرأ مالك بن دينار وابن مِقْسم والحسن وابن عامر: «ستعلمون» في الموضعين[٢] بالتاء الفوقيَّة على نهج الالتفاتِ إلى الخطاب الموافق لِمَا بعده من الخطابات تشديداً للردع والوعيد، لا على تقدير: قل لهم: كلَّا ستعلمون. . إلخ، فإنه ليس بذاك وإن كان فيه نوعُ حُسْنٍ على تقدير كون المراد: يسألون النبيَّ ﷺ.

وعن الضحاك أنَّه قرأ الأول بتاء الخطاب والثاني بياء الغيبة[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ إلخ استئنافٌ مَسوقٌ لتحقيق النبأ المتساءَلِ عنه بتعداد بعضِ الشواهد الناطقة بحقيَّته إثر ما نبَّه عليها بما ذكر من

---

(١) في الأصل: الثاني.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٧، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٧، ولم يذكر أحدٌ ـ فيما بين أيدينا من مصادر ـ قراءةَ ابن مِقْسم.

(٣) البحر ٨/ ٤١١.

الرَّدع، وجُوِّز أن يكون بتقدير: قل، كأنَّه قيل: قل كيف تنكرون أو تشكُّون في البعث وقد عاينتم ما يدلُّ عليه من القدرة التامَّة والعلمِ المحيط والحكمة الباهرة المقتضية أن لا يكونَ ما خلق عبثاً؟! وفيه أنَّ مَنْ كانَ عظيمَ الشأن باهرَ القدرة ينبغي أن يُخافَ ويُخشى ويُتأثَّرَ مِنْ زجره ووعيده. والهمزةُ للتقرير بما بعد النفي.

والمهادُ: الفراش الموطَّأ، وفي «القاموس»[1]: المهد: الموضع الذي يهيَّأ للصبي كالمهاد، وعليه فالمَهْد والمِهاد بمعنًى، ويؤيده قراءةُ مجاهد وعيسى الهمداني: «مَهْداً»[2]، وفي الآية حينئذٍ تشبيهٌ بليغٌ، وكلٌّ منهما مصدرٌ سُمِّي به ما يُمهد. وجوّز أن يكون باقياً على المصدرية، والوصفُ بالمصدر كثيرٌ، أو التقدير: ذات مِهادٍ أو مَهْدٍ. وقيل: كما يمكن أن يكون المهاد مصدراً سُمِّي به المفعول يحتمل أن يكون فعالاً، أي: اسماً على زنته يُؤخذ للمفعول كالإله والإمام.

وجَعْلُ الأرض مِهاداً إمَّا في أصل الخِلْقة أو بعدَها. وأيًّا ما كان فلا دلالةَ في الآية على ما ينافي كُرِيَّتها، كما هو المشهور من عدَّة مذاهبَ، ومذهبُ أهل الهيئة المحدثين أنَّها مسطَّحةٌ عند القطبين؛ لأنَّها كانت ليِّنةً جداً في مبدأ الأمر؛ لظهور غاية الحرارة الكامنة فيها اليوم، فيها إذ ذاك، وقد تحرَّكت على محورها، فاقتضى مجموعُ ذلك صيرورتَها مسطَّحةً عندهما عندهم، وأهلُ الشرع لا يقولون بذلك، ولا يتمُّ للقائل به دليلٌ حتى يرثَ اللهُ تعالى الأرض ومَنْ عليها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي: كالأوتاد، ففيه تشبيهٌ بليغٌ أيضاً، والمراد: أرسينا الأرضَ بالجبال كما يُرسى البيتُ بالأوتاد. قال الأفْوَه:

والبيتُ لا يُبْتنى إلَّا له عَمَدٌ ... ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ[3]

وفي الحديث[4]: «خلقَ اللهُ تعالى الأرضَ فجعلت تميدُ، فوضعَ عليها الجبال فاستقرَّت، فقالت الملائكةُ: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الجبال؟ قال: نعم،

(١) مادة (مهد).
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٧، والبحر ٨/ ٤١١.
(٣) ديوان الأفوه الأودي ص١٠ (الطرائف الأدبية).
(٤) تقدم تخريجه في سورة الرعد، الآية (٣).

الحديد. فقالت: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الحديد؟ قال: نعم، النار. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالوا: ربَّنا هل خلقت خلقاً أشدَّ من الهواء؟ قال: نعم ابن آدم، يتصدَّقُ بيمينه فيخفي ذلك عن شماله». وظاهرُه كغيره أنَّ خلقَ الجبال بعد خلقِ الأرض، وإليه ذهب الفلاسفةُ المتقدّمون والمُحْدَثون، وهي متفاوتةٌ عندهم في الحدوث تقدُّماً وتأخُّراً.

وجاء في حديثٍ رواه الحاكمُ وصحَّحه[١] عن ابن عباس أنَّ أولَ جبلٍ أبو قبيس.

وفي كيفية حدوثها منذُ حدثت خلافٌ عندهم، وقد يتلاشى ما حدث منها بطول الزمان:

إنَّ الجديدَيْن إذا ما استَوْلَيا على جديدٍ أسْلَماه للبِلى[٢]

وربما يشاهدُ حدوثُ بعض تلاعٍ حجرية من انجماد بعض المياه.

واستُشكل احتياجُها للإرساء بالجبال مع طلبها للمركز بثقلها المطلق، وأجيب بأنَّه قد علم الله تعالى أنَّها سَتَكِنُّ، ويكونُ عليها من الأثقال ما يكون، ومن المعلوم أنَّها حينئذٍ يكون لها مركزان، مركزُ حجم ومركزُ ثقل، والذي ينطبق منهما على مركز العالم إنَّما هو مركزُ الثقل، فيلزم من تحرك ثقيلٍ إلى جهة المشرق أو المغرب ـ مثلاً ـ عليها تحرُّكُها؛ لاختلاف مركز ثقلها ولزوم انطباقِه على مركز العالم، فيحصل المَيْد، ولم تكن إذ ذاك بحيثُ لا يكون لما يكونُ[٣] عليها من أثقالٍ سكنَتْها قَدرٌ يُحسُّ به، فوُضعت عليها الجبالُ وانطبق مركز ثقلها

---

(١) المستدرك ٢/ ٥١٢، وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: طلحة بن عمرو (أحد رواة الحديث) ضعّفوه.

(٢) البيت لابن دريد، وهو أحد أبيات مقصورته المشهورة، ينظر «شرح المقصورة» للتبريزي ص٤٥، وفيه: أَدْنياه للبلى، وأورده الزبيدي في «تاج العروس» (جدد) وفيه: أدَّياه للبلى. والجديدان: الليل والنهار، واستوليا على جديد: ملكاه.

(٣) قوله: لما يكون، ليس في الأصل.

على مركز العالم وصار مجموع الأرض والجبال بحيثُ لا يظهر للمتحرِّك بعدُ قَدْرٌ يُحسُّ به.

وقيل: إنَّها كانت لخفَّتها بحيثُ تحركها أمواجُ البحر المحيط بها فيحصل المَيْدُ، فثقِّلت بالجبال، مع ما في الجبال من المنافع الجمَّة التي لم تخلق الأرض لأجلها بحيثُ لا تحركها الأمواج.

وتمامُ الكلام في ذلك حسبما كنَّا واقفين عليه قد مرَّ فتذكَّر[1].

وحُكي عن بعضٍ أنَّ جَعْلَها كذلك بمعنى جَعْلِها سبباً لانتظام أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع، ولولاها لَمادَتْ بهم، أي: لِمَا تهيَّأت للانتفاع بها ولاختلَّ أمرُ سكناهم إيَّاها. وهو تأويلٌ منافٍ للظواهر لا يُحتاج إليه ما لم يقم الدليل القطعيُّ على مُحَالِيَّة إرادة الظاهر. نعم قيل: إنَّ هذا أقربُ للتقرير، فإنَّ جعلها أوتاداً بهذا المعنى أظهرُ من جعلها كذلك بذلك المعنى وأقربُ إلى العلم به، وربّما يقال: إنَّه أوفقُ لترك إعادة العامل، ومَنْ لا يراه يجعل النكتةَ فيه قوَّةَ ما بين الأرض والجبال من الاشتراك والارتباط، فافهم.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عطفٌ على المضارع المنفيِّ بـ «لم» داخلٌ في حكمه، فإنَّه في قوَّة: أَمَا جَعَلْنا.. إلخ، أو على ما يقتضيه الإنكار التقريريُّ، فإنَّه في قوة أن يقال: قد جعلنا.. إلخ. والالتفاتُ إلى الخطاب هنا بناءً على القراءة المشهورة في «سيعلمون» للمبالغة في الإلزام والتبكيت.

﴿أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ قال الزجَّاجُ وغيره: مزدوجين ذكراً وأنثى؛ ليتسنَّى التناسلُ وينتظمَ أمرُ المعاش. وقيل: أصنافاً في اللَّون والصورة واللِّسان.

وقيل: يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجاً الخلقَ من منيَّين، منيِّ الرجل ومنيِّ المرأة، والمعنى: خلقنا كلَّ واحد منكم أزواجاً باعتبار مادَّته التي هي عبارةٌ عن منيَّين، فيكون «خلقناكم أزواجاً» من قبيل مقابلة الجمع بالجمع، وتوزيع الأفراد على الأفراد، وهو خلافُ الظاهر جدًّا ولا داعي إليه.

---

(١) في سورة الرعد، الآية (٣).

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي: كالسُّبات، ففي الكلام تشبيهٌ بليغ كما تقدَّم. والمراد بالسبات: الموت، وقد ورد في اللُّغة[1] بهذا المعنى، ووجهُ تشبيه النوم به ظاهرٌ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وهو على بناء الأدواء مشتقٌّ من السَّبْت بمعنى القطع؛ لما فيه من قطع العمل والحركة، ويقال: سَبَتَ شعره: إذا حلقه، وأنفَه إذا اصْطَلمَه[2]. وزعم ابنُ الأنباريِّ كما في «الدرر» أنَّه لم يسمع السبت بمعنى القطع[3]، وكأنَّه كان أصمَّ.

وقيل: أصلُ السبت التمدُّد كالبَسْط، يقال: سَبَتَ الشعر، إذا حلَّ عِقاصَه، وعليه تفسيرُ السبات بالنوم الطويل الممتدِّ، والامتنانُ به لما فيه من عدم الانزعاج، وجوَّز بعضُهم حملَه على النوم الخفيف بناءً على ما في «القاموس»[4] من إطلاقه عليه، على أنَّ المعنى: جعلنا نومكم نوماً خفيفاً غيرَ ممتدٍّ فيختلَّ به أمرُ معاشكم ومعادكم.

وفي «البحر»[5]: «سُباتاً» أي: سكوناً وراحةً، يقال: سَبَتَ الرجلُ، إذا استراح. وزعم ابنُ الأنباريِّ أيضاً عدمَ سماع سَبَت بهذا المعنى[6]، وردَّ عليه المرتضى[7] بأنَّه أُريد الراحة اللازمة للنوم وقطعِ الإحساس، فإنَّ في ذلك راحةَ القوى الحيوانية مِمَّا عراها في اليقظة من الكَلَال، ومنه سُمِّي اليومُ المعروف سبتاً؛ لفراغٍ وراحةٍ لهم فيه. وقيل: سُمِّي بذلك لأنَّ الله تعالى ابتدأ بخلق السماوات والأرض يومَ الأحد، فخلقها في ستَّةِ أيامٍ كما ذكر عزَّ وجلَّ، فقطعَ عملَه سبحانه يومَ السبت، فسُمِّي بذلك.

---

(١) القاموس المحيط (سبت).
(٢) الصَّلْم: قطع الأذن أو الأنف من أصلهما. القاموس المحيط (صلم).
(٣) كذا نقل المصنف رحمه الله عن الخفاجي في «حاشيته» على البيضاوي ٨/ ٣٠٢، في حين نقل المرتضى في «الدرر» (الأمالي) ١/ ٣٣٩ أن ابن الأنباري اعتمد أن السبت بمعنى القطع، وهو ما ذكره ابن الأنباري نفسه في كتابه «الزاهر في معاني كلمات الناس» ٢/ ١٣٧.
(٤) مادة (سبت).
(٥) ٨/ ٤١١.
(٦) ينظر «الزاهر» ٢/ ١٣٨، وأمالي المرتضى (الدرر والغرر) ١/ ٣٣٩-٣٤٠.
(٧) في الدرر ١/ ٣٣٩-٣٤٠.

واختار المحقِّقون كونَ السبات هنا بمعنى الموت؛ لأنه أنسبُ بالمقام كما لا يخفى.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع فيه النومُ غالباً ﴿لِبَاسًا ۝١٠﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللِّباس، ولعلَّ المراد بهذا اللِّباسِ المشبَّهِ به ما يُستتر به عند النوم من اللِّحاف ونحوه، فإنَّ شَبَه اللَّيل به أكملُ، واعتبارَه في تحقيق المقصد أدخل.

واختار غيرُ واحدٍ إرادةَ الأعمِّ، وأنَّ المعنى: جعلناه ساتراً لكم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدوٍّ أو بياتاً له، أو إخفاءَ ما لا تحبُّون الاطِّلاعَ عليه من كثيرٍ من الأمور.

وقد عدَّ المتنبي من نِعَم اللَّيل البياتَ على الأعداء والفوزَ بزيارة المحبوب واللِّقاء، مكذِّباً ما اشتهر من مذهب المانويَّة[(١)] من أنَّ الخير منسوب إلى النور والشرَّ إلى الظلمة بالمعنى المعروف[(٢)]، فقال:

وكم لظلامِ اللَّيلِ عندي[(٣)] مِنْ يدٍ تخبِّرُ أنَّ المانويَّةَ تكذبُ
وقاكَ ردى الأعداءِ تسري إليهمُ وزارَكَ فيه ذو الدَّلالِ المحجَّبُ[(٤)]

وقال بعضهم: يمكن أن يحمل كونُ الليل كاللِّباس على كونه كاللِّباس لليوم في سهولة إخراجه منه. ولا يخفى بعدُه.

ومِمَّا يقضى منه العجب: استدلالُ بعضهم بهذه الآية على أنَّ من صلَّى عُرياناً في ليل أو ظلمة فصلاتُه صحيحةٌ. ولَعمري لقد أتى بعُريٍّ عن لباس التحقيق، كما لا يخفى على من أشرق عليه ضياءُ الحقِّ الحقيق.

---

(١) أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، يقولون: إن العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة. الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٤٤.

(٢) جاء في هامش الأصل: وهو مما لا يكاد يذهب إليه عاقل، فلعلهم أرادوا بالنور صفة الجمال وبالظلمة صفة الجلال. اهـ. منه.

(٣) في الديوان: عندك.

(٤) ديوان المتنبي ١/ ٣٠٢.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى العيش، وهو الحياة المختصَّةُ بالحيوان على ما قال الراغب(١)، دون العامَّة لحياة المَلَك مثلاً.

ووقع هنا ظرفاً كما قيل في نحو: أتيتُكَ خفوقَ النجم وطلوعَ الفجر. وجوِّز أن يكون اسمَ زمان، وتُعقِّب بأنه لم يثبت مجيئُه كذلك في اللُّغة، والمعنى: وجعلنا النهارَ وقتَ معاشٍ - أي: حياة - تُبعثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت، وكأنَّه لَمَّا جعل سبحانه النومَ موتاً مجازاً، جعل جلَّ شأنُه اليقظةَ معاشاً كذلك، لكن أُوثر النهارُ ليناسبَ المتوسِّط. وقيل: المعنى: وجعلنا النهارَ وقتَ معاشٍ تتقلَّبون فيه لتحصيل ما تعيشون به، وهو أنسبُ بجعل السبات - فيما تقدَّم - بمعنى القطع عن الحركة على ما قيل.

ولا يخفى حسنُ ذكرِ جعل الليل لباساً بعد جعل النوم سباتاً، وهو مشيرٌ إلى حكمة جعل النوم ليلاً أيضاً؛ لأنَّ النائمَ معطَّلُ الحواسِّ، فكان محتاجاً لساترٍ عمَّا يضرُّه، فهو أحوجُ ما يكون للدِّثار وضرب خيام الاستتار.

وفي «الكشف» أنَّ المطابقةَ بين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ مصرّحةٌ، وفيه مطابقةٌ معنويةٌ أيضاً مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾(٢) من حيثُ إنَّ النهار وقت اليقظة والمعاش في مقابلة السبات؛ لأنَّه حركةُ الحيِّ، ومنه عُلم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ غيرُ مستطرِدٍ، ووجهُ النظم أنَّه لما ذكرَ خلقَهم أزواجاً استوفى أحوالهم مقترنين ومفترقين. اهـ.

وفيه تعريضٌ بالطيبيِّ حيثُ زعم الاستطراد إذا أُريد بالمعاش اليقظةُ وبالسبات الموتُ.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ أي: سبعَ سماواتٍ قويةَ الخَلْقِ محكمةً، لا يسقط منها ما يمنعكم المعاش، والتعبيرُ عن خلقها بالبناء للإشارة إلى تشبيهها

(١) في المفردات (عيش).
(٢) في الأصل و(م): وجعلنا النوم. ولم ترد آية بهذا اللفظ لا في سورة النبأ ولا غيرها، والمثبت هو الموافق لما في سورة النبأ.

بالقِباب المبنية على سَكَنتها. وقيل: للإشارة إلى أنَّ خلْقَها على سبيل التدريج، وليس بذاك.

وفيه أنَّ السماء خيميَّةٌ لا سطحٌ مستوٍ، وفي الآثار ما يشهدُ له، ولا يأباه جَعْلُها سقفاً في آية أخرى(١)، وقد صحَّ في العرش ما يشهد بخيميَّته أيضاً.

والفلاسفة السالفون على استدارتها، ويطلقون عليها اسم: الفَلَك، واستدلُّوا على ذلك حسبَ أصولهم بعدَ الاستدلال على استدارة السطح الظاهر من الأرض، ولا يكاد يتمُّ لهم دليلٌ عليه، قالوا: الذي يدلُّ على استدارة السماء هو أنَّه متى قصدنا عدَّة مساكنَ على خطٍّ واحدٍ من عرض الأرض، وحصَّلنا الكواكبَ المارَّةَ على سَمْت الرأس في كلٍّ واحدة منها، ثم اعتبرنا أبعادَ ممراتِ تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضِها من بعضٍ، وجدناها على نِسَبِ المسافات الأرضية بين تلك المساكن، وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب، فتحدُّبُ السماء في العرض مشابهٌ لتحدُّب الأرض فيه، لكنَّ هذا التشابه موجودٌ في كلِّ خطٍّ من خطوط العرض، وكذا في كلِّ خطٍّ من خطوط الطول، فسطحُ السماء بأسره موازٍ لسطح الظاهر من الأرض بأسره، وهذا السطحُ مستديرٌ حسًّا فكذا سطح السماء الموازي له.

وأيضاً أصحابُ الأرصاد دوَّنوا مقاديرَ أجرام الكواكب وأبعادَ ما بينها في الأماكن المختلفة في وقتٍ واحد كما في أنصاف نهار تلك الأماكن مثلاً متساويةً، وهذا يدلُّ على تساوي أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار المستلزمِ لتساوي أبعادها عن مركز العالم؛ لاستدارة الأرض المستلزمِ لكون السماء كريَّةً.

وزعموا أنَّ هذين أقربُ ما يُتمسَّك بهما في الاستدارة من حيثُ النظرُ التعليميُّ. وفي كلٍّ مناقشةٌ(٢):

---

(١) كما في سورة الأنبياء: الآية (٣٢).

(٢) جاء في هامش الأصل: قال الخضري: لا خفاء في جريان كل من المناقشتين في كل من الوجهين. انتهى منه.

أمَّا الثاني: فالمناقشة فيه أنه إنَّما يصحُّ لو كان الفَلَكُ عندهم ساكناً والكوكب متحركاً، إذ لو كان السماء متحركاً جاز أن يكون مربعاً، ويكون مساواةُ أبعادِ مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار وتَسَاوي مقادير الأجرام للكواكب حاصلاً.

وأمَّا الأول: فالمناقشة فيه أنَّه إنَّما يصحُّ لو كان الاعتدال المذكور موجوداً في كلِّ خطٍّ من خطوط الطول والعرض، وهو غير معلومٌ.

وأمَّا غيرُ ما ذُكر من أدلَّتهم فمذكورٌ مع ما فيه في «نهاية الإدراك في دراية الأفلاك»(١) فارجع إليه إنْ أردته.

بقي هاهنا بحثٌ وهو أنَّ العطف إذا كان على الفعل المنفيِّ بـ «لم» داخلاً في حكمه، يلزمُ أن يكون بناءُ سبع سماواتٍ شدادٍ فوق معلوماً للمخاطبين، وهم مشركو مكة المنكرون للبعث كما سمعت، ليتأتَّى تقريرُهم به كسائر الأمور السابقة واللَّاحقة، فيقال: إنَّ كونَ السماوات سبعاً مِمَّا لا يُدرك بالمشاهدة، وهم المكذِّبون بالنبيِّ ﷺ فلا يصدّقونه بمثل ذلك مِمَّا معرفتُه ـ بحسب الظاهر ـ إنَّما هي من طريق الوحي. وأُجيب بأنَّهم علموا ذلك بواسطة مشاهدتهم اختلافَ حركات السيارات السبع مع اختلاف أبعادها بعضِها عن بعضٍ، وذلك أنَّهم علموا السيارات واختلافَ حركاتها، وعلموا أنَّ بعضَها فوق بعض لخَسْفِ بعضها بعضاً، فقالوا في بادئ النظر بسبع سماوات، كلُّ سماءٍ لكوكب من هاتك الكواكب. ولا يلزمنا البحثُ عمَّا قالوا في الثوابت وفي المحرِّك لها وللسبع بالحركة اليومية، إذ هو وراء ما نحن فيه.

واعترض بأنَّ هذا لا يتمُّ إلَّا إذا كانوا قائلين بأنَّ السماء عبارة عن الفَلَك وإنَّما تتحرَّكُ على الاستدارة، ويكون أوجُهَا حضيضاً وحضيضُها أوجاً، ولعلَّهم لا يقولون بذلك وإنَّما يقولون كبعض السلف من الصحابة رضي الله عنهم أنَّ السماءَ ساكنةٌ والكوكبَ متحركٌ، والفَلَك إنَّما هو مجراه، وحينئذٍ فيجوز أن تكون السبع ـ على

---

(١) كتاب في الهيئة للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (ت ٧١٠هـ)، رتَّبه على أربع مقالات: المقدمة، هيئة الأجرام، هيئة الأرض، مقادير الأجرام. كشف الظنون ٢/ ١٩٨٥.

اختلاف حركاتها وأبعادها ـ في ثخن سماءٍ واحدةٍ تجري في أفلاكٍ ومجارٍ لها على الوجه المحسوس، ويجوز أيضاً غيرُ ذلك كما لا يخفى. وأيضاً لو كان علمهم بذلك مِمَّا ذُكر لقالوا بالتداوير ونحوها أيضاً كما قال بذلك أهلُ الهيئة السالفون؛ لأنَّ اختلافَ الحركات يقتضيه بزعمهم، لاسيَّما في المتحيّرة، ولو كان العربُ قائلين به لوقع في أشعارهم، بل لا يبعد أنَّه لو ذَكر لهم ذاكرٌ التداويرَ والمتمِّمات الحاوية والمحويَّة مثلاً لنسبوه إلى ما يكره.

وقيل: إنَّهم ورثوا علم ذلك عن أسلافهم السامعين له مِمَّن يعتقدون صدقَه كإسماعيل عليه السلام، ويجوز أن يكونوا سمعوه من أهل الكتاب، ولَمَّا لم يرَوْه منافياً لما هم عليه اعتقدوه، ويكفي في صحة التقرير هذا المقدارُ من العلم.

وتعقِّب بأنَّه على هذا لا تنتظم المتعاطفات المقرَّرُ بها في سلكٍ واحد من العلم، والأمرُ فيه سهلٌ.

وقيل: نزِّلوا منزلةَ العالمين به؛ لظهور دليله، وهو إخبارُ مَنْ دلَّت المعجزةُ على صدقه به. وفيه بعدٌ.

وقيل: الخطاب للناس مؤمنيهم ومشركيهم، وغلِّبَ المؤمنون على غيرهم في التقرير المقتضي لسابقيَّة العلم، وهو كما ترى.

واختار بعضٌ أنَّ العطف على ما يقتضيه الإنكارُ التقريريُّ، فيكون الكلام في قوَّة: قد جعلنا الأرض. . ـ إلى آخره ـ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وهو حينئذٍ ابتداءُ إخبارٍ منه عز وجل بالبناء المذكور، فلا يقتضي سابقيَّةَ علم.

وتعقّب بأنَّ العطفَ على الفعل المنفيِّ بـ «لم» أوفقُ بالاستدلال بالمذكورات على صحَّة البعث، كما لا يخفى، فتأمّل.

وتقديمُ الظرف على المفعول للتشويق إليه مع مراعاة الفواصل.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: أنشأنا وأبدعنا ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾ مشرقاً متلألئاً، من وهَجتِ النارُ: إذا أضاءت. أو بالغاً في الحرارة، من الوَهَج. والمراد به الشمسُ، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خَلْق السماوات بالبناء.

ونصب «سراجا» على المفعولية، و«وهَّاجاً» على الوصفية له. وجوَّزَ بعضُهم أن يكونا مفعولين للجعل على أنَّه هنا مِمَّا يَتعدى إليهما. وتُعقِّب بأنَّه مخالفٌ للظاهر؛ للتنكير فيهما، وإن قيل: السراجُ الشمسُ، وهي ـ لانحصارها في فردٍ ـ كالمعرفة.

واختُلف في موضع الجَعْل، والمشهورُ أنَّه في السماء الرابعة، ولم نرَ فيه أثراً سوى ما في «البحر»[1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: الشمسُ في السماء الرابعة إلينا ظهرُها، ولهبُها يضطرم علوًّا.

والمذكور في كتب القوم أنَّهم جعلوا سبعةَ أفلاكٍ للسيارات السبع على ترتيبِ خَسْفِ بعضِها بعضاً، أقصاها لزحل، والذي تحته للمشتري، ثم للمريخ، والأدنى للقمر، والذي فوقه لعطارد، ثم الزهرة. إذ وجدوا القمر يكسفُ الستَّ من السيارات وكثيراً من الثوابت المحاذية لطريقته في ممرِّ البروج، وعلى هذا الترتيب وجدوا الأدنى يكسفُ الأعلى، والثوابتُ تنكسف بالكلِّ، ويُعلم الكاسفُ من المنكسِفِ باختلاف اللَّون، فأيُّهما ظهرَ لونُه عند الكسف فهو كاسفٌ، وأيُّهما خفي لونُه فهو منكسفٌ.

وبقي الشكُّ في أمر الشمس، إذ لم يُعرف انكسافُ شيءٍ من الكواكب بها؛ لاضمحلال نورها في ضيائها عند القرب منها، ولا انكسافُها بشيءٍ من الكواكب غير القمر، فذهب بعض القدماء إلى أنَّ فلكي الزهرة وعطارد فوق فلكها مستدلِّين عليه بأنَّهما لا يكسفانها كما يكسِفها القمر، وهو باطل، إذ من شرط كسف السافل العاليَ أن يكونا معاً، والبصرُ على خطٍّ واحدٍ مستقيم، وإلَّا لم يكسفه كما في أكثر اجتماعات القمر، وإذا كان كذلك فمن المحتمل أن يكون مدارهما بين الشمس والأبصار، ولأنَّ جرمَيْهما عندهم صغيران غيرُ مظلمين كجرم القمر حتى يكسفاها، ولأنَّه إذا كسفَ القمرُ من جِرْم الشمس ما مساحتُه مساويةٌ

---

(١) ٨/ ٤١١ وذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤.

لجرم أحد هذين الكوكبين أو أكثر، لا يظهر المنكسِفُ للأبصار على ما نصَّ عليه بطلميوس[(١)] في «الاقتصاص»[(٢)].

وذهب بعض مَنْ تقادم عهدُهم إلى أنهما تحت فلك الشمس وإن لم تُكسف بهما؛ استحساناً؛ لِمَا في ذلك من حسن الترتيب وجودة النظام على ما بُيِّن في موضعه، ومال إليه بطلميوس، قال في «المجسطي»: ونحن نرى ترتيب من تقادم عهدُه أقربَ إلى الإقناع؛ لأنَّه أشبهُ بالأمر الطبيعيِّ، لتوسّط الشمس بين ما يبعد عنها كلَّ البعد وبين ما لا يبعد عنها إلَّا يسيراً. ثم قويَ عزمُه لَمَّا رأى بُعدَ الشمس المعلومَ من الأرض مناسباً لهذا الموضع؛ لأنَّه لَمَّا وجد بين أبعدِ بُعْدِ القمر وأقربِ قُرْبِ الشمس بعداً يمكن أن يوجد فيه فَلَكا الزهرة وعطارد وأبعادَهما المختلفة، قال في «الاقتصاص»: مثلُ هذا الفضاء لا يَحْسن أن يترك عُطْلاً، ولا يحسن أن يكون فيه المريخ فضلاً عن غيره، فليكونا فيه.

وتأكّد هذا عند بعض المتأخِّرين بأنَّه شوهدت الزهرةُ على قرص الشمس في وقتين بينهما نيِّفٌ وعشرون سنةً، وكانت أولَ الحالين في ذروة التدوير، وفي الثاني في أسفله، ويبطل به ما ظُنَّ من كون عطارد والزهرة مع الشمس في كرة ومركز تدويرهما؛ لاستحالة أن ترى الزهرةَ في الذروة على هذا الوجه.

وهذه أمورٌ ضعيفة بعضُها خطابيٌّ إقناعيٌّ وبعضُها مبيَّنٌ ما فيه في محلِّه.

وقد زعم بعضُ الناس أنَّه كما وجد في وجه القمر محوٌ فكذا في وجه الشمس فوقَ مركزها بقليل نقطةٌ سوداء. وأهلُ الأرصاد ـ اليوم على ما سمعنا من غير واحد ـ جازمون بأنَّ في قرصها سواداً وعلامات مختلفةً، ولهم في ذلك كلامٌ مذكور في كتبهم، وعليه ففي تشبيهها بالسراج من الحسن ما فيه. وعن بعضهم أنَّ النور كخيمة عليها، ورأيتُ في بعض كتبهم أنه ينبثق من حوالي جِرْمها.

(١) في (م): بطليموس. وكُتب بكليهما في المصادر، وبغيره أيضاً ك: بطلماوس وأبطلميوس وغيرها.

(٢) جاء في هامش الأصل: ويسمى بالمشورات أيضاً. وكتابه هذا هو: اقتصاص أحوال الكواكب، كما ذكر ذلك القفطي في كتابه: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٦٩.

والكلامُ في مقدار جِرْمها وبُعْدِها عن الأرض عند كلٍّ من المتقدمين والمعاصرين من الفلاسفة مما لا حاجةَ لنا به في هذا المقام، مع ما في ذلك من الاختلاف المفضي بيانُه بما له وعليه إلى مزيدِ تطويلٍ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ هي السحائبُ على ما رُوي عن ابن عباس وأبي العالية والربيع والضحاك، ولَمَّا كانت مُعصَرةً ـ اسمَ مفعول ـ لا مُعصِرةً ـ اسم فاعل ـ قيل: إنها جمعُ مُعصِرة من أَعْصَر، على أن الهمزةَ فيه للحينونة، أي: حانت وشارفت أن تعصرَها الرياحُ فتمطرَ، والإفعال يكون بهذا المعنى كثيراً، كأجْزَر إذا حان وقت جِزَاره، وأحْصَد إذا شارف وقتُ حصاده، ومنه: أعْصَرت الجاريةُ، إذا دَنَتْ أن تحيض، قال أبو النجم العجليُّ[1]:

تمشي الهُوَيْنا مائلاً[2] خمارُهَا قد أعْصَرتْ أو قد دَنا إعْصارُها

وجُوِّز على تقدير كون الهمزة للحينونة أن يكونَ المعنى: حان لها أن تَعْصِر، أي: تُغيث، ومنه: العاصرُ: المغيثُ، ولذا قال ابن كَيْسان: سُمِّيت السحائبُ بذلك؛ لأنَّها تُغيث، فهي من العَصْرة، كأنَّه في الأصل بمعنى: حان أن تَعْصِر، بتخييل أنَّ الدم يحصل منها بالعصر. وقيل: إنَّها جمعٌ لذلك أيضاً إلَّا أنَّ الهمزةَ لصيرورة الفاعل ذا المأخذ، كأيسر وأعسر وألحم، أي: صار ذا يسر، وصار ذا عسر، وصار ذا لحم.

وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة: أنَّها الرياح؛ لأنَّها تَعْصِر السحابَ فيمطر، وفسَّرها بعضُهم بالرياح ذوات الأعاصير، على أنَّ صيغة اسم الفاعل للنسبة إلى الإعصار بالكسر، وهي ريحٌ تثير سحاباً ذا رعدٍ وبرق، ويعتبر التجريد عليه على ما قيل. والمازنيُّ اعتبر النسبة أيضاً إلَّا أنه قال: «المعصرات»: السحائبُ ذوات الأعاصير؛ فإنَّها لا بدَّ أن تمطر معها، وأيّد تفسيرها بالرياح بقراءة ابن الزبير وابن

---

(١) كما في البحر ٨/ ٤٠٩، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٥٤، وابن منظور في اللسان (عصر) لمنظور بن مرثد الأسدي (ووقع في مطبوع: منصور)، وهو بلا نسبة في العقد الفريد ٣/ ٤٦٠، وتهذيب اللغة (عصر).

(٢) ويروى: ساقطاً.

عباس وأخيه الفضل وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة: «بالمعصرات»[١] بباء السببية والآليَّة؛ فإنَّها ظاهرةٌ في الرياح، فإنَّ بها ينزل الماء من السحاب، ولهذه القراءة جعلَ بعضُهم «مِن» في قراءة الجمهور ـ وتفسيرِ «المعصرات» بالرياح ـ للتعليل، وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّها للتعليل ابتدائية فإنَّ السحاب كالمبدأ الفاعل للإنزال، وتُعقِّب بأنَّ ورود «من» كذلك قليلٌ.

وعن أبيٍّ والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة أيضاً: أنَّها السماواتُ، وتُعقِّب بأنَّ السماء لا ينزل منها الماءُ بالعصر، فقيل في تأويله: إنَّ الماء ينزل من السماء إلى السحاب، فكأن السماوات يعصرن، أي: يَحْملنَ على عصر الرياحِ السحابَ ويُمكِّنَّ منه، وتُعقِّب بأنَّه مع بُعْدِه إنَّما يتمُّ لو جاء المعصر بمعنى العاصر، أي: الحامل على العصر، ولو قيل: المرادُ بالمعصِر: الذي حان له أن يعصر، كان تكلفاً على تكلُّفٍ، والذي في «الكشف» أنَّ الهمزة على التأويل المذكور للتعدية. فتدبَّر ولا تغفل.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ أي: منصبًّا بكثرة، يقال: ثجَّ الماءُ، إذا سال بكثرة، وثجَّه: أي: أساله. فثجَّ ورد لازماً ومتعدِّياً، واختير جعلُ ما في النظم الكريم من اللّازم؛ لأنَّه الأكثر في الاستعمال. وجعله الزجَّاجُ من المتعدي، كأنَّ الماء المنزَّلَ لكثرته يصبُّ نفسَه، ومن المتعدِّي ما في قوله ﷺ: «أفضلُ الحجِّ: العجُّ والثجُّ»[٢]، أي: رفعُ الصوت بالتلبية وصبُّ دماء الهدي[٣]، والمرادُ: أفضلُ أعمال الحجِّ التلبيةُ والنحر.

ولا يأبى الكثرةَ كونُ الماء من المعصرات، وظاهرُه أنَّه بالعصر، وهو لا يحصل منه إلَّا القليلُ؛ لأنَّ ذلك غيرُ مسلَّم، ولو سلّم فالقلَّة نسبية.

وقرأ الأعرج: «ثَجَّاحاً» بجيم ثم حاء مهملة[٤]، ومثاجِحُ الماء: مصابُّه.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٤٧، والبحر ٨/ ٤١١-٤١٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

(٣) في (م): ماء الهدى.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٠٨، والبحر ٨/ ٤١٢، ونسبها في اللباب ٢٠/ ٩٩ للأعمش، وجاء في القراءات الشاذة ص١٦٧: تجّاخاً، ونسبها لعكرمة فقط، ولعلها: ثجاخاً.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، وهو على ظاهره عند السلف ومن اقتدى بهم، وقالت الأشاعرة: أي: عنده.

﴿حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾ ما يُقتات به كالحنطة والشعير، ويُعتلف كالحشيش والتبن. وتقديمُ الحبِّ مع تأخُّره عن النبات في الإخراج؛ لأصالته وشرفه؛ لأنَّ غالبه غذاءُ الإنسان.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ جمعُ: جنَّة، وهي كلُّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ، من الجَنِّ وهو الستر. وقال الفراء: الجنَّةُ ما فيه النخيلُ، والفردوسُ ما فيه الكَرْمُ. وقد تسمَّى الأشجار الساترة جنَّة، وعليه حُمل قولُ زهير:

مِنَ النَّواضِحِ تَسقي جَنَّةً سُحُقاً[1]

وهو المراد هنا.

وقوله تعالى: ﴿أَلْفَافًا ۝١٦﴾ أي: ملتفةً تداخلَ بعضُها ببعض. قيل: لا واحد له، كالأوزاع والأخياف للجماعات المتفرقة المختلفة، واختاره الزمخشريُّ[2].

وقال ابن قتيبة: جمعُ: لُفّ، بضمِّ اللّام جمعُ: لَفَّاء، فهو جمعُ الجمعِ[3]. واستُبعد بأنَّه لم يجئ في نظائره ذلك، فقد جاء: خُضْر جمع: خضراء، وحُمْر جمع: حمراء، ولم يجئ أخضار جمعُ: خُضْر، ولا أحمار جمعُ: حُمْر، وجمعُ الجمع لا ينقاس، ووجودُ نظيره في المفردات لا يكفي، كذا قيل.

وقال الكسائيُّ: جمع: لَفيف بمعنى ملفوف. وفعيل يُجمَع على أفعال كشريف وأشراف، وإنَّما اختلف النحاة في كونه جمعاً لفاعل.

وفي «الكشاف»[4]: لو قيل: هو جمعُ: ملتفَّة، بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً

---

(١) ديوان زهير ص٣٧، وسلف عند تفسير الآية (٣٤) من سورة ﴿يسٓ﴾. وصدر البيت:
كأنَّ عينيَّ في غَرْبَي مُقَتَّلةٍ

(٢) الكشاف ٤/٢٠٨.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٥٠٩.

(٤) ٤/٢٠٨.

وجيهاً. انتهى. وإنَّما يقدَّرُ حذفُ الزوائد وهو الذي يسمِّيه النحاةُ في مثل ذلك: ترخيماً؛ لأنَّ قياس جمع ملتفة: ملتفَّات، لا ألفاف.

واعترضه في «الكشف» فقال فيه: إنَّه لا نظير له؛ لأنَّ تصغير الترخيم ثابتٌ[1]، أما جمعُه فلا، لكن قيل: إنَّ هذا غيرُ مسلَّم، فإنَّه وقع في كلامهم ولم يتعرَّضوا له لقلَّته. والحقُّ أنَّه وجهٌ متكلَّفٌ.

وجمهور اللُّغويين على أنَّه جمع: لِفّ بالكسر، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ بمعنى ملفوف، وفِعْل يُجمع على أفعال باطِّراد كجِذْع وأجذاع، وعن صاحب «الإقليد» أنَّه قال: أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

جنَّةٌ لفٌّ وعيشٌ مُغدِقٌ ونَدامى كلُّهم بِيضٌ زُهُر[2]

وجوّز في «القاموس»[3] أن يكون جمع: لَفّ بالفتح.

هذا وفيما ذُكر من أفعاله تعالى شأنه دلالةٌ على صحة البعث وحقِّيَّته من أوجهٍ ثلاثةٍ على ما قيل:

الأول: باعتبار قدرته عزَّ وجل، فإنَّ مَنْ قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه كان على الإعادة أقدرَ وأقوى.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإنَّ من أبدعَ هذه المصنوعات على نمطٍ رائع مستتبع لغايات جليلةٍ ومنافعَ جميلة عائدة إلى الخَلْق يستحيل حكمةً أن لا يجعل لها عاقبةً.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإنَّ اليقظةَ بعد النوم أنموذجٌ للبعث بعد الموت، يشاهدُه كلُّ واحدٍ، وكذا إخراجُ الحبِّ والنبات من الأرض يعايَنُ كلَّ حين، فكأنَّه قيل: فعلنا ـ أو ألم نفعل ـ هذه الأفعال الآفاقية الدالَّة بفنون الدلالات على حقِّيَّة البعث الموجبة للإيمان به، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتسألون عنه استهزاءً.

---

(١) جاء في هامش الأصل: واللواقح والطوائح ليس منه على ما قيل. اهـ منه.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٠٨، والقرطبي ٢٢/ ١٢، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤١٢.
(٣) مادة (لفّ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ شروعٌ في بيان سرِّ تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به، قائلين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ونوعُ تفصيلٍ لكيفية وقوعه، وما سيلقَوْنه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّه لما أثبتَ سبحانه صحَّةَ البعث كان مظنَّة السؤال عن وقته، فقيل: «إنَّ» إلخ، وأكّد لأنَّه مِمَّا ارتابوا فيه. وليس بذاك.

أي: إنَّ يوم فَصْلِ الله تعالى شأنُه بين الخلائق كان في علمه عز وجل ميقاتاً وميعاداً لبعث الأوَّلين والآخرين، وما يترتَّب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً لا يكاد يتخطَّاه بالتقدُّم والتأخُّر. وقيل: حدًّا توقَّتُ به الدنيا وتنتهي إليه، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه؛ لتمييز أحوالهم.

والأول أوفقُ بالمقام، على أنَّ الدنيا تنتهي ـ على ما قيل ـ عند النفخة الأولى.

وأيًّاما كان فالمضيُّ في «كان» باعتبار العلم، وجُوِّز أن يكون بمعنى: يكون، وعبّر عن المستقبل بالماضي لتحقّق وقوعه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: النفخة الثانية. و«يوم» بدل من «يوم الفصل»، أو عطفُ بيان مفيدٌ لزيادة تفخيمه وتهويله.

ولا ضَيْرَ في تأخُّر الفصل عن النفخ، فإنَّه زمانٌ ممتدٌّ يقعُ في مبدئه النفخُ وفي بقيَّته الفصلُ ومباديه وآثارُه. وتقدَّم الكلامُ في الصُّور(١).

وقرأ أبو عياض: «في الصُّوَر» بفتح الواو(٢)، جمع: صورة. وقد مرَّ الكلامُ في ذلك أيضاً(٣).

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحةٌ تُفصح عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

(١) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.
(٢) البحر ٨/ ٤١٢.
(٣) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.

﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾[1] [الشعراء: ٦٣]، أي: فتحيون فتُبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لُبثٍ أصلاً.

﴿أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ أي: أمماً، كلُّ أمة بإمامها كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أو زمراً وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال متباينةَ الأوضاع حسبَ اختلاف الأعمال وتباينها، واستُدلَّ لهذا بما خرَّج ابنُ مردويه[2] عن البراء بن عازب أنَّ معاذ بن جبل قال: يا رسول الله، ما قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال: «يا معاذ، سألت عن عظيمٍ من الأمور» ثُمَّ أرسل عينيه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «عشرةُ أصنافٍ قد ميَّزهم الله عز وجل من جماعة المسلمين، فبدَّل صورَهم، فبعضُهم على صورة القردة، وبعضُهم على صورة الخنازير، وبعضُهم منكَّسين: أرجلُهم فوق ووجوهُهم أسفل يُسحبون عليها، وبعضُهم عُمْيٌ يتردَّدون، وبعضُهم صمٌّ بكمٌ لا يعقلون، وبعضُهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلَّاةٌ على صدورهم يسيلُ القيح من أفواههم لعاباً يتقذَّرُهم أهلُ الجمع، وبعضُهم مقطَّعةٌ أيديهم وأرجلهم، وبعضُهم مصلَّبون على جذوعٍ من نار، وبعضُهم أشدُّ نَتْناً من الجِيَف، وبعضُهم ملبَّسون جياباً سابغةً من قَطِران لازقةً بجلودهم. فأمَّا الذين على صورة القردة: فالقتَّات من الناس، وأمَّا الذين على صورة الخنازير: فأكلةُ السُّحْت، وأمَّا المنكَّسون على وجوههم: فأكلةُ الربا، وأمَّا العُمْيُ: فالذين يجورون في الحكم، وأمَّا الصمُّ البكم فالمعجَبون بأعمالهم، وأمَّا الذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصَّاص الذين خالفَ أقوالَهم أعمالُهم، وأمَّا الذين قُطعت أيديهم وأرجلهم: فهم الذين يؤذون الجيران، وأمَّا المصلَّبون على جذوع من نار: فالساعون بالناس إلى السلطان، وأمَّا الذين هم أشدُّ نتناً من الجِيَف: فالذين يتمتَّعون بالشهوات واللَّذات ويمنعون حقَّ الله تعالى من أموالهم، وأمَّا الذين

---

(١) في الأصل و(م): «فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق»، وكذا وردت في تفسير أبي السعود ٩/ ٨٩ والكلام منه، والمثبت هو الصواب.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧، وأخرجه الثعلبي في تفسيره ١٠/ ١١٥.

يلبسون الجياب: فأهلُ الكبر والخُيَلاء والفخر». وهذا كما قال ابنُ حجر: حديثٌ موضوعٌ، وآثارُ الوضع لائحةٌ عليه[(١)].

وعليه قيل: لا بدَّ من التغليب في قوله تعالى: «فتأتون» إذ لا يمكن الإتيان للمصلوب والمسحوب على الوجه، ولا لمن قُطعت يداه ورجلاه. وتعقّب بأنَّه ليس بشيءٍ، فإنَّ أمورَ الآخرة لا تقاس على أمور الدنيا، والقادرُ على البعث قادرٌ على جعلهم ماشين بلا أيدٍ وأرجلٍ، وأن تمشيَ بهم عمدُ النار التي صُلبوا عليها، مع أنَّه لا يلزم أن يأتوا بأنفسهم؛ لجواز أن تأتيَ بهم الزبانيةُ.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطفٌ على «ينفخ» على ما قيل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، وعن الزمخشريِّ أنه معطوفٌ على «فتأتون»[(٢)]، وليس بشرط أن يتوافقا في الزمان كما يَظنُّ مَن ليس بنحويٍّ. وأقرَّه في «الكشف»، وقال: الشرط في حسنه أن يكون مقرّباً من الحال، أو يكون المضارعُ حكايةَ حالٍ ماضية، وما نحن فيه مضارعٌ جيء به بلفظ الماضي تفخيماً وتحقيقاً لوقوعه فهو أقربُ قريبٍ منه، ولو جُعل حالاً على معنى: فتأتون وقد فُتحت السماء، لكان وجهاً.

وقرأ الجمهور ـ أي: مَن عدا الكوفيين ـ: «فُتِّحت» بالتشديد[(٣)]، قيل: وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

وفُسِّر الفتح بالشَّقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] إلى غير ذلك، والقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، وجاء الفتح بهذا المعنى كفتح الجسور[(٤)] وما ضاهاها. ولعلَّ نكتةَ التعبير به

---

(١) نقله الخفاجي في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٥، وقال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ١٤٢ في ترجمة: محمد بن زهير بن عطية السُّلَمي: وأظنه الذي روى الحديث الطويل الظاهر الوضع في البعث، المذكور عند الثعلبي في تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

(٢) لم نقف عليه في الكشاف، وذكر هذا الوجه الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٠٥، ولم ينسبه لأحد.

(٣) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٥: كفتح الجيوب.

عنه الإشارةُ إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شقُّ هذا الجِرم العظيم كفتح الباب سهولةً وسرعةً.

و«كان» بمعنى «صار»، ولدلالتها على الانتقال من حالٍ إلى أخرى، وكونِ السماء بالشقِّ لا تصير أبواباً حقيقةً، قالوا: إنَّ الكلام على التشبيه البليغ، أي: فصارت شقوقُها ـ لسعتها ـ كالأبواب، أو فصارت من كثرة الشقوق كأنَّ الكلَّ أبوابٌ، أو بتقدير مضافٍ أي: فصارت ذاتَ أبواب.

وقيل: الفتحُ على ظاهره، والكلامُ بتقدير مضافٍ إلى «السماء»، أي: فُتحت أبواب السماء فصارت كأن كلَّها أبوابٌ، ويجامع ذلك شَقَّها فتنشقُّ وتفتحُ أبوابها.

وتعقِّب بأنَّ شقَّها لنزول الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] فإذا شقِّقت لا يحتاج لفتح الأبواب، وأيضاً فتحُ أبوابها ليس من خواصِّ يوم الفصل، وفيه بحثٌ. نعم إنَّ الوجه الأول أولى.

وقيل: المعنى: يفتح مكان السماء بالكَشْط فتصيرُ كلُّها طرقاً لا يسدُّها شيءٌ. وفيه بعدٌ.

وعلى ما تقدَّم، في الآية ردٌّ على زاعمي امتناع الخَرْق على السماء، وفيها على هذا ردٌّ لزاعمي كَشْطها كما هو المشهور عن الفلاسفة المتقدِّمين، وإن حقَّقَ الملا صدرا في «الأسفار» أنَّ أساطنتهم على خلاف ذلك، والفلاسفةُ اليوم ينفون السماءَ المعروفة عند المسلمين، ولم يأتوا بشيءٍ تؤوَّل له الآياتُ والأخبار الصحيحة في صفتها كما لا يخفى على الذكيِّ المنصف.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الجوِّ على هيئتها بعد تفتُّتها، وبعد قلعها من مقارِّها كما يُعربُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وأدمجَ فيه تشبيه الجبال بحبال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: فصارت بعد تسييرها مثلَ سرابٍ، فتُرى بعد تفتُّتها وارتفاعها في الهواء كأنَّها جبالٌ، وليست بجبال، بل غبارٌ غليظ متراكم يُرى من

بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسراب يُرى كأنَّه بحرٌ مثلاً، وليس به، فالكلامُ على التشبيه البليغ.

والجامع أنَّ كلًّا من الجبال والسراب يُرى على شكل شيءٍ، وليس هو بذلك الشيء. وجُوِّز أن يكون وجهُ الشبه التخلخلَ، إذ تكون بعد تسييرها غباراً منتشراً كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

والمستفادُ من «الأزهار البديعة في علم الطبيعة» لمحمد الهراوي أنَّ السرابَ هواءٌ تسخَّنت طبقتُه السفلى التي تلي الأرض؛ لتسخُّنِ الأرض من حرِّ الشمس، فتخلخلت وصعدَ جزءٌ منها إلى ما فوقَها من الطبقات فكان أكثفَ مِمَّا تحته، وخرج بذلك التسخُّنِ عن موقعه الطبيعيِّ من الأرض، ولانعكاس الأشعة الضوئية وانكسارها فيه على وجهٍ مخصوص ـ مبيَّن في الكتاب المذكور ـ مع انعكاس لون السماء يُظَنُّ ماءً، وتُرى فيه صورةُ الشيء منقلبةً، وقد تُرى فيه صورٌ سابحةٌ كقصور وعمد ومساكنَ جميلةٍ مستغرَبةٍ وأشباح سائرة تتغير هيئتها في كلِّ لحظة وتنتقل عن محالِّها ثم تزول، وما هي إلَّا صورٌ حاصلةٌ من انعكاس صور مرئية بعيدةٍ جدًّا أو متراكبةٌ في طبقات الهواء المختلفة الكثافة، فاعتبارُ التخلخلِ فقط في وجه الشبه لا يخلو عن نظر.

وأيًّا ما كان فهذا بعد النفخة الثانية عند حشر الخَلْق، فاللهُ عز وجل يسيِّرُ الجبالَ ويجعلها هباءً منبثًّا، ويسوِّي الأرضَ يومئذٍ كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فإنَّ اتِّباع الداعي ـ الذي هو إسرافيلُ عليه السلام ـ وبروزَ الخلق تعالى لا يكون إلَّا بعد النفخة الثانية، وأمَّا اندكاكُ الجبال وانصداعُها فعند النفخة الأولى.

وقيل: إنَّ تسييرها وصيرورتها سراباً عند النفخة الأولى أيضاً، ويأباه ظاهر الآية، نعم لو جُعلت الجملةُ حاليةً، أي: فتأتون أفواجاً وقد سُيِّرت الجبال فكانت سراباً، لكان ذلك محتملاً، والظاهرُ أنها تصير سراباً لتسوية الأرض، ولا يبعد أن يكون فيه حِكَمٌ أخرى.

وقول بعضهم: إنَّها تجري جريانَ الماء وتسيل سيلانَه كالسراب، فيزيد ذلك في اضطراب متعطِّشي المحشر وغلبة شوقهم إلى الماء = خلاف الظاهر.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ شروعٌ في تفصيل أحكام الفَصْل الذي أُضيف إليه اليوم إثر بيان هوله.

والمرصادُ: اسم مكان، كالمضمار للموضع الذي تضمَّرُ فيه الخيل، ومِفْعال يكون كذلك ـ على ما صرَّح به الراغب والجوهريُّ[1] وغيرُهما ـ كما يكون اسمَ آلةٍ وصفةً مشبَّهةً للمبالغة. والظاهرُ أنَّه حقيقةٌ في الجميع. أي: موضعُ رصدٍ وترقُّب، تَرصدُ فيه خزنةُ النار الكفارَ ليعذِّبوهم. وقيل: ترصد فيه خزنةُ الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فَيْحها في مجازهم عليها. وقيل: ترصد الملائكةُ عليهم السلام الطائفتين لتعذب[2] إحداهما وهي المؤمنة وتعذِّب الأخرى وهي الكافرة.

وجوِّز أن يكون صيغةَ مبالغة كمِنْحار[3]، أي: مُجدَّة في ترصُّد الكفرة؛ لئلَّا يشذَّ منهم واحدٌ، أو مجدَّة في ترصُّد المؤمنين لئلا يتضرَّر أحدٌ منهم من فَيْحها، أو مجدَّةٌ في ترصُّد الطائفتين على نحو ما سمعتَ آنفاً.

وإسناد ذلك إليها مجازٌ أو على سبيل التشبيه. وفي «البحر»[4]: إنَّ في: «مرصاداً» معنى النَّسب، أي: ذات رصدٍ.

وقد يفسَّرُ المرصاد بمطلق الطريق وهو أحد معانيه، فيكون للطائفتين، ومن هنا قال الحسن كما أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد في الآية: لا يدخلُ الجنةَ أحدٌ حتى يجتاز النار. وقال قتادة كما أخرج هؤلاء عنه أيضاً: اعلموا أنَّه لا سبيل إلى الجنة حتى تُقطعَ النار[5].

---

(١) الراغب في «المفردات» (رصد)، والجوهري في «الصحاح» مادة (ضمر).
(٢) كذا في الأصل و(م)، وصوابه: لتحرس، أو: لتنقذ، أو نحوه.
(٣) في (م): كمتحار. ورجل منحار: يوصف بالجود. الصحاح (نحر).
(٤) البحر ٨/ ٤١٣.
(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٢١، والدر المنثور ٦/ ٣٠٧.

وقوله تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ أي: المتجاوزين الحدَّ في الطغيان، متعلِّقٌ بمضمر؛ إمَّا نعتٌ لـ «مرصاداً» أي: كائناً للطاغين، وإمَّا حالٌ من قوله تعالى: ﴿مَـَٔابٗا ٢٢﴾ قُدِّم عليه لكونه نكرةً، ولو تأخَّر لكان صفةً له، أي: كانت مرجعاً ومأوًى كائناً لهم يرجعون إليه ويأوون لا محالةَ، وجوّز أن يكون خبراً آخر لـ «كانت»، أو متعلقاً بـ «مآباً» أو بـ «مرصاداً»، وعليه قيل: معنى مرصاداً لهم: معدَّةٌ لهم، من قولهم: أرْصَدْت له، أي: أعددت وكافأته بالخير أو بالشر.

و«مآباً» قيل: بدل من «مرصاداً» على جميع الأوجه، بدلَ كلٍّ من كلّ. وقيل: هو خبرٌ ثانٍ لـ «كانت» أو صفةٌ لـ «مرصاداً»، و«للطاغين» متعلِّقٌ به أو حالٌ منه على بعض التفاسير السابقة في «كانت مرصاداً»، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو المِنْقَرِيُّ وابن يعمر: «أنَّ جهنَّم» بفتح الهمزة(١)، بتقدير لام جرٍّ؛ لتعليل قيام الساعة المفهوم من الكلام، والمعنى: كان ذلك لإقامة الجزاء. وتعقّب بأنَّه ينبغي حينئذٍ أن يكون «إنَّ للمتقين» أيضاً بالفتح ومعطوفاً على ما هنا؛ لأنه بكليهما يتمُّ التعليل بإقامة الجزاء، إلَّا أن يقال: ترك العطف للإشارة إلى استقلال كلٍّ من الجزاءين في استدعاء قيام الساعة. وفيه نظرٌ؛ لأنَّه بذاك يتمُّ الجزاء، وأمَّا نفس إقامته فيكفي في تعليلها ما ذكر، على أنَّه لو كان المراد فيما سبق: كانت مرصاداً للفريقين ـ على ما سمعت ـ لا يتسنَّى هذا الكلام أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ ـ أي: مقيمين في جهنم ملازمين لها ـ حالٌ مقدَّرةٌ من المستكنِّ في «للطاغين».

وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن عليٍّ وابن وثَّاب وعمرو بن شُرَحْبيل وابن جبير وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح: «لبثين» بغير ألف بعد اللَّام(٢)، وفيه

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٩، والبحر ٨/ ٤١٣، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٧ إلى أبي معمر، وهي كنية المنقري نفسه، كما أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٥ نسبها لأبي معمر المنقري، ولعله يقال له أيضاً: أبو عمرو. ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٢٢، وغاية النهاية ١/ ٤٣٩ وباقي مصادر ترجمته.

(٢) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة وروح، والكلام من البحر ٨/ ٤١٣.

من المبالغة ما ليس في «لابثين». وقال أبو حيان[١]: إنَّ فاعلاً يدلُّ على مَنْ وُجد منه الفعل، وفَعِلاً يدلُّ على مَنْ شأنه ذلك كحاذر وحَذِر.

وقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ ظرفٌ للبثهم وهو ـ وكذا: أحْقُب ـ جمع: حُقب، بالضم وبضمَّتين. وهو على ما رُوي عن الحسن: زمانٌ غير محدود، ونحوه تفسير بعض اللّغويين له بالدهر.

وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصحَّحه[٢] عن ابن مسعود أنه قال: الحُقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج نحوه البزارُ عن أبي هريرة[٣]، وابنُ جرير[٤] عن ابن عباس، وابنُ المنذر عن ابن عمر[٥]، ورُوي عن جمع من السلف[٦] بَيْدَ أنَّهم قالوا: إنَّ كلَّ يومٍ منه ـ أي: هنا ـ مقدار ألف سنة من سني الدنيا.

وأخرج البزار وابنُ مردويه والديلميُّ عن ابن عمر مرفوعاً أنَّه بضعٌ وثمانون سنة، كلُّ سنة ثلاثمئة وستُّون يوماً، واليوم ألف سنة مما تَعدُّون[٧].

وقيل: أربعون سنة، وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت فيه حديثاً مرفوعاً[٨].

وقال بعض اللغويين: سبعون ألف سنة. واختار غيرُ واحد تفسيرَه بالدهر.

وأيَّاما كان فالمعنى: لابثين فيها أحقاباً متتابعةً، كلَّما مضى حُقبٌ تبعه حُقبٌ

---

(١) في البحر ٨/ ٤١٣.

(٢) المستدرك ٢/ ٥١٢، وعزاه لهما السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٧.

(٣) كشف الأستار (٢٢٧٨)، وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (٢١٩)، والطبري ٢٤/ ٢٤.

(٤) في تفسيره ٢٤/ ٢٤.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وفيه: ابن عمرو.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٤-٢٥، والدر المنثور ٦/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٧) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣٢، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٣٤، وذكره الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢٣ مع حديث آخر وقال: هما موضوعان في نقدي.

(٨) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨ وأخرجه أيضاً ابن عدي ٥/ ١٧٨١، وفي إسناده عمرو بن شمر الجعفي، وهو متروك.

آخر. وإفادةُ التتابع في الاستعمال بشهادة الاشتقاق، فإنَّه من الحقيبة وهي ما يشدُّ خلف الراكب، والمتتابعات يكون أحدها خلف الآخر، فليس في الآية ما يدلُّ على خروج الكفرة من النار وعدم خلودهم فيها؛ لمكان فَهْمِ التتابع في الاستعمال، وصيغةُ القلَّة لا تنافي عدم التناهي، إذ لا فرقَ بين تتابع الأحقاب الكثيرة إلى ما لا يتناهى، وتتابع الأحقاب القليلة كذلك.

وقيل: إنَّ الصيغة هنا مشتركةٌ بين القلَّة والكثرة، إذ ليس للحُقب جمعُ كثرة فلْيُرَدْ بها ـ بمعونة المقام ـ جمع الكثرة. وتعقّب بثبوت جمع الكثرة له، وهو الحِقَب كما ذكره الراغب، والذي رأيته في «مفرداته»[1] أنَّ الحِقَب ـ أي: بكسر الحاء وفتح القاف ـ جمع[2]: الحقبة، المفسَّرة بثمانين عاماً.

نعم قيل: إنَّه ينافيه ما ورد أنَّه يخرج أناسٌ من أهل النار من النار ويقربون من الجنة، حتى إذا استنشقوا ريحَها ورأَوْا ما أعدَّ الله تعالى لعباده المؤمنين فيها نُودوا: أن اصرفوهم عنها، لا نصيبَ لهم فيها، فيُردُّون إلى النار بحسرةٍ ما رجع الأولون والآخرون بمثلها[3]. وتعقب بأنَّه إنْ صحَّ إنَّما ينافيه لو كان الخروج حقباً تامًّا، أمَّا لو كان في بعض أجزاء الحُقب فلا؛ لبقاء تتابعِ الأحقاب جملةً، سلَّمنا لكنَّ هذا الإخراجَ الذي يستعقب الردَّ لزيادة التعذيب كاللُّبث في النار بل[4] أشدّ، والكلامُ من باب التغليب، وليس فيه الجمعُ بين الحقيقة والمجاز، ثم إن وجد أنَّ في الآية ما يقتضي الدلالة على التناهي والخروج من النار ولو بعدَ زمانٍ طويل فهو مفهوم معارَضٌ بالمنطوق الصريح بخلافه كآيات الخلود وقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] إلى غير ذلك.

وإن جعل قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ حالاً من المستكنِّ في «لابثين» فيكون قيداً للَّبث، فيحتمل أن يلبثوا فيها أحقاباً غيرَ

(١) مادة (حقب).
(٢) لفظ: جمع، ليست في (م).
(٣) سلف تخريجه ٨/ ٤٣٧.
(٤) لفظ: بل، ليست في (م).

ذائقين إلَّا حميماً وغسّاقاً، ثم يكون لهم بعد الأحقاب لبثٌ على حالٍ آخرَ من العذاب. وكذا إن جعل «أحقاباً» منصوباً بـ «لا يذوقون» قيداً له، إلَّا أنَّ فيه بُعْداً، ومثله لو جعل «لا يذوقون فيها» إلخ صفةً لـ «أحقاباً» وضميرُ «فيها» لها لا لجهنم، لكنَّه أبعدُ من سابقه.

وقيل: المراد بالطاغين ما يقابل المتقين، فيشمل العصاةَ، والتناهي بالنظر إلى المجموع، وهو كما ترى.

وقولُ مقاتل: إنَّ ذلك منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، فاسدٌ كما لا يخفى.

وجوّز أن يكون «أحقاباً» جمعُ: حَقِب، كحذِر، من حَقِب الرجلُ: إذا أخطأه الرزقُ، وحَقِبَ العامُ: إذا قلَّ مطرُه وخيرُه، والمراد: محرومين من النعيم، وهو كنايةٌ عن كونهم معاقبين، فيكون حالاً من ضمير «لابثين».

وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ صفةٌ كاشفةٌ أو جملةٌ مفسِّرةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهو على ما ذُكر أولاً جملةٌ مبتدأة خبر عنهم.

والمراد بالبرد ما يروِّحهم وينفِّس عنهم حرَّ النار، فلا ينافي أنَّهم قد يعذَّبون بالزمهرير. والشرابُ معروفٌ. والحميمُ: الماء الشديد الحرارة. والغسَّاق: ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد. أي: لا يذوقون فيها شيئاً ما؛ من رَوْح ينفِّس عنهم حرَّ النار، ولا من شراب يسكِّن عطشهم، لكن يذوقون ماءً حارًّا وصديداً.

وفي الحديث: «إنَّ الرجل منهم إذا أدنى ذلك مِن فِيْهِ سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ البردَ الشرابُ البارد المستلَذُّ، ومنه قولُ حسان بن ثابت:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٨ لابن مردويه.

يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البريْصَ عليهمُ بَرْداً[1] يُصَفِّقُ بالرحيق السَّلْسلِ[2]

وقولُ الآخر[3]:

أمانيُّ من سُعْدَى حِسانٌ كأنَّما سَقتْكَ بها سُعْدَى على ظَمأ بَرْداً[4]

فيكون «ولا شراباً» من نفي العامِّ بعد الخاصِّ.

وقال أبو عبيدة[5] والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ[6] النحويُّ: البَرْد: النوم، والعرب تسمّيه بذلك؛ لأنَّه يبرد سَوْرة العطش، ومن كلامهم: منعَ البردُ البردَ، وقال الشاعر:

فلو شِئتُ حرَّمتُ النساءَ سواكُمُ وإن شئتُ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْداً[7]

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: النحويون ينشدون بيت حسان: بردى، بفتح الراء والدال بعدها ألف التأنيث، وهو نهر في دمشق. اهـ. منه. ويروى البيت بالروايتين.

(٢) ديوان حسان ص٣٦٥، وسلف عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأعراف.

(٣) اختُلف في نسبة هذا البيت كما هو مبيَّنٌ في التعليق التالي.

(٤) شعر ابن ميادة ص٢٤٥ (القسم الذي نُسب إليه أو إلى غيره)، ونسبه أبو تمام في الحماسة ٣/ ١٤١٣ (شرح المرزوقي) لرجل من بني الحارث، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٥/ ١٩٢ لبعض الأعراب، ونسبه في معاهد التنصيص ٢/ ١٤١ لابن سارة. ورُوي البيت بأسماء أخرى مثل: ليلى، سلمى. ويروى: عِذابٌ، بدل: حسانٌ، ويروى: سقتني، سقتنا. ويروى: أمانيَّ.... حساناً، بإضمار فعل، كأنه قال: أذكر أمانيَّ من سُعدى... والمعنى كما ذكر المرزوقي: أذكرُ أمانيَّ من هذه المرأة جميلةً، وكأن موقعها من قلوبنا موقعُ الماء البارد من ذي الغُلَّة الصادي.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٢.

(٦) كذا في الأصل و(م)، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٦، والبحر ٨/ ٤١٤، ولعلها: أبو معاذ، فالفضل بن خالد هو أبو معاذ النحوي، وقد نقل الحموي في معجم الأدباء ١٦/ ٢١٤ في ترجمته عن الأزهري قوله: ولأبي معاذ كتاب في القرآن حسن. اهـ. وقد روى عنه الأزهري في التهذيب فأكثر. (ت ٢١١هـ). وجاء في النسخ الخطية لتفسير القرطبي ٢٢/ ٢٠: وأبو معاذ، ولعل الواو فيها زائدة. وأما إن كانت كما هي، أي: ومعاذ، فلعله: معاذ بن مسلم، أبو مسلم، النحوي الكوفي الهراء، أستاذ الكسائي. (ت ١٨٨هـ). إنباه الرواة ٣/ ٢٨٨، والسير ٨/ ٤٨٢.

(٧) جاء في هامش الأصل: نُقاخاً، أي: ماءً. منه. والبيت للعرجي كما في الحيوان للجاحظ =

وهو[1] مجازٌ في ذلك عند بعض، ونقل في «البحر» عن كتاب «اللغات في القرآن» أنَّ البرد هو النوم بلغة هذيل[2]، وعن ابن عباس وأبي العالية: الغسَّاق الزمهرير، وهو على ما قيل مستثنًى من «برداً» إلَّا أنَّه أُخِّر لتوافق رؤوس الآي، فلا تَغْفُل.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «غساقاً» بالتخفيف[3].

﴿جَزَآءً﴾ أي: جُوزوا بذلك جزاءً، فـ «جزاء» مفعولٌ مطلق منصوب بفعل مقدَّر، وجعلُه خبراً آخر لـ «كانت» ليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ مصدرُ وافقه، صفةٌ له بتقدير مضاف، أي: ذا وفاق، أو بتأويله باسم الفاعل، أو لقصد المبالغة على ما عُرف في أمثاله.

وأيًّاما كان فالمراد: جزاءً موافقاً لأعمالهم، على معنى أنَّه بقَدْرِها في الشدَّة والضعف بحسب استحقاقهم، كما يقتضيه عدلُه وحكمتُه تعالى.

والجملةُ من الفعل المقدَّر ومعموله جملةٌ حالية أو مستأنفة.

وجُوِّز أن يكون «وفاقاً» مصدراً منصوباً بفعل مقدَّر أيضاً أي: وافقها وفاقاً، وهذه الجملة في موضع الصفة لـ «جزاءً». وقال الفراء: هو جمع: وفق[4]. ولا يخفى ما في جعله حينئذٍ صفةً لـ «جزاء» من الخفاء.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: «وِفَّاقاً» بكسر الواو وتشديد الفاء[5]، من وَفِقه يَفِقُه ـ ك : ورثه يرثه ـ: وَجَدَه موافقاً لحاله. وفي «الكشف»: وَفِقه بمعنى

---

= ٥/ ٣٢، والصحاح (نقخ)، ولسان العرب (برد)، وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص١٤٦ و٥٠٩. والنقاخ: الماء العذب.

(١) قبلها في (م): أي.

(٢) البحر ٨/ ٤١٤، والكتاب لعله لابن حَسْنُون، عبد الله بن الحسين بن حسنون، مسند القرّاء في زمانه وعالم باللغة. (ت ٣٨٦هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٣٢٧، والأعلام ٤/ ٧٩.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٠. وقرأ بالتشديد حفص وحمزة والكسائي وخلف.

(٤) البحر ٨/ ٤١٤.

(٥) البحر ٨/ ٤١٤.

وافقه، وليس وصف الجزاء به وصفاً بحال صاحبه كما لا يخفى، وحكى ابنُ القُوطيَّة(١): وَفق أمرُه، أي: حَسُن، وليس المعنى عليه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ تعليلٌ لاستحقاق العذاب المذكور، أي: كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا بأعمالهم. ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الناطقةِ بذلك، أو به وبغيره مِمَّا يجب الإيمان به. ﴿كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: تكذيباً مفرطاً، وفِعَّال بمعنى تفعيل في مصدر فَعَّل مطَّردٌ شائع في كلام فصحاء العرب، وعن الفراء: أنه لغةٌ يمانية فصيحة، وقال لي أعرابيٌّ على جبل المروة يستفتيني: آلحلقُ أحبُّ إليك أم القِصَّار؟ ومن تلك اللغة قولُ الشاعر:

لقد طالَ ما ثبَّطتني عن صَحابتي     وعن حاجةٍ قِضَّاؤُها من شِفائيا(٢)

وقال ابن مالك في «التسهيل»(٣): إنَّه قليلٌ.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلافٍ عنه بالتخفيف(٤). قال صاحب «اللوامح»: وذلك لغة اليمن، يجعلون مصدر كَذَب ـ مخففاً ـ كِذَاباً بالتخفيف، مثل: كتب كتاباً، فكِذَاباً بمعنى كَذِباً، وعليه قول الأعشى:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها     والمرءُ ينفعُه كِذَابُه(٥)

---

(١) هو محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي، القرطبي النحوي، له «تصاريف الأفعال»، (ت ٣٦٧هـ). السير ١٦/ ٢١٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩، والبيت للأعور بن براء الكلبي كما في تهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢/ ٥٦٦، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص٧٩، ونسبه في تهذيب اللغة (كذب) لبعض بني كلاب، وفي لسان العرب (كذب) لبعض بني كُليب، ويروى البيت: وعن حِوَج، بدل: وعن حاجة.

(٣) ص٢٠٦.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٤٨، والبحر ٨/ ٤١٤.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤١٤، ولم نقف عليه في ديوان الأعشى، وقال المبرد في الكامل ٢/ ٧٤٧: وأنشدني المازني للأعشى، وليس مما روت الرواة متصلاً بقصيدة، ثم ذكره برواية: فصدقتهم وكذبتهم. . .، وهو برواية المصنف في اللسان، والتاج (صدق).

والكلام هنا عليه من باب: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ففعلهُ الثلاثي إمَّا مقدَّرٌ، أي: كذَّبوا بآياتنا وكَذَبوا كِذَاباً، أو هو مصدر للفعل المذكور باعتبار تضمُّنه معنى كَذَبَ الثلاثي، فإنَّ تكذيبهم الحقَّ الصريح يستلزم أنَّهم كاذبون. وأيًّا ما كان يدلُّ على كذبهم في تكذيبهم.

وجوِّز أن يكون بمعنى مكاذَبة، كقتال بمعنى مقاتلة، فهو من باب المفاعلة، على معنى أنَّ كلًّا منهم ومن المسلمين اعتقد كذب الآخر بتنزيل الاعتقاد[1] منزلةَ الفعل، لا على معنى أنَّ كلًّا كذب الآخر حقيقةً، ويجوز أن تكون المفاعلة مجازاً مرسلاً بعلاقة اللُّزوم عن الجدِّ والاجتهاد في الفعل، ويحتمل الاستعارة فإنَّهم كانوا مبالغين في الكذب مبالغةَ المغالبين فيه.

وعلى المعنيين: كونهِ بمعنى الكذب وكونه بمعنى المكاذبة، يجوز أن يكون حالاً[2]، بمعنى كاذبين أو مكاذبين، على اعتبار المشاركة وعدم اعتبارها.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والماجشون: «كُذَّاباً» بضمِّ الكاف وتشديد الذال[3]، وخُرِّج على أنَّه جمع كاذب، كفُسَّاق جمع فاسق، فيكون حالاً أيضاً. و: كذبوا في حال كذبهم، نظير: إذا جاء.. حين يأتي، على ما قيل في قول طَرَفة:

إذا جاءَ ما لا بُدَّ منه فمرحباً    به حين يأتي لا كِذَابٌ ولا عِلَل[4]

وفيه بحث ظاهر. وجوّز أن يكون مفرداً صيغةَ مبالغةٍ، ككُبَّار وحُسَّان فيكون صفةً لمصدر محذوف، أي: تكذيباً كُذَّاباً، فيفيد المبالغة والدلالة على الإفراط في الكذب؛ لأنه ك: لَيلِ ٱلْلَيلَ وظلامٍ مظلمٍ، والإسناد فيه مجازيٌّ.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالُهم، وقال أبو حيان[5]: أي:

---

(١) في الأصل و(م): بتنزيل ترك الاعتقاد، والمثبت هو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٨.

(٢) جاء في هامش الأصل: كما يجوّزون مصدر المحذوف، أي: كذبوا أو كاذبوا. اهـ منه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤١٥ عن ابن عطية وصاحب اللوامح أنها قراءة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ثم ذكر الذي عند ابن خالويه.

(٤) ديوان طرفة ص٧٥.

(٥) في البحر ٨/ ٤١٥.

كلٍّ شيءٍ مِمَّا يقع عليه الثواب والعقاب، فهو عامٌّ مخصوص، وانتصابُه بمضمَر يفسِّره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. وقرأ أبو السَّمَّال بالرفع[1] على الابتداء.

﴿كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ مصدر مؤكِّدٌ لـ «أحصيناه»، فإنَّ الإحصاء والكَتْب يتشاركان في معنى الضبط، فإمَّا أن يؤوَّلَ «أحصيناه» بـ: كتبناه، أو كتاباً بإحصاءً، وجوِّز الاحتباك على الحذفين من الطرفين. أو حالٌ بمعنى: مكتوباً في اللوح، أو صحف الحَفَظة.

والظاهرُ أنَّ الكلام على حقيقته، وقال بعضهم[2]: الظاهر أنَّه تمثيلٌ لصورة ضبط الأشياء في علمه تعالى بضبط المُحْصي المُجدِّ المتقن للضبط بالكتابة، وإلا فهو عزَّ وجل مستغنٍ عن الضبط بالكتابة، وهذا التمثيلُ لتفهيمنا، وإلَّا فالانضباط في علمه تعالى أجلُّ وأعلى من أن يُمثَّل بشيءٍ. والمشهور عند أهل السنَّة ما قدَّمنا، وليس ذلك للاحتياج وإنَّما هو لحِكَمٍ تقصر عنها العقول.

والجملةُ اعتراضٌ لتأكيد الوعيد السابق بأنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ لاحقٌ بهم؛ لأنَّ معاصيَهم مضبوطةٌ مكتوبة يُكفحون[3] بها يوم الجزاء.

وقيل: لتأكيد كفرهم وتكذيبهم بالآيات بأنَّهما محفوظان للجزاء. وليس بذاك.

وقال البعض: الأوجَه عندي أنَّ «كلَّ شيء» منصوبٌ بالعطف على اسم «إنَّ» في «إنهم كانوا لا يرجون حساباً»، و«أحصيناه كتاباً» عطفٌ على خبره، والرفعُ على العطف على محلِّ اسم «إنَّ»، والجُملُ بيانٌ لكون الجزاء المذكور موافقاً لأعمالهم؛ لأنَّ الجزاءَ الموافق إنَّما يكون لصدور أفعالٍ موجبةٍ له عنهم، وضبطِها وعدم فوتها على المُجازي، فالجملتان الأُوليان لإفادة صدور الموجبِ وهو الكفرُ المعبَّر عنه بعدم رجاء الحساب والتكذيب بالآيات لما أنَّ ذلك كالعلم فيه، والأخيرةُ لإفادة الضبط وعدم الفوت، أي: مع إدماج الإشارة إلى باقي المعاصي فيها، وليست اعتراضاً. انتهى. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤١٥.

(٢) في هامش الأصل: عصام الدين. اهـ منه.

(٣) أي: يواجهون بها، كافحه: لقيه مواجهة. المعجم الوسيط (كفح).

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ مسبَّبٌ عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، وتسبُّبُ الذوقِ والأمرُ به في غاية الظهور، وقيل: الأظهر أنَّه مرتبطٌ بقوله تعالى: (لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا) إلخ، أي: إذا ذاقوا الحميمَ والغسَّاق، فيقال لهم: ذوقوا فلن نزيدكم. . إلخ. وحينئذٍ الجملُ بينهما اعتراضية. وفيه: أنه في غاية البعد، مع ما فيه من كثرة الاعتراض. ومجيئُه على طريق الالتفات للمبالغة؛ لتقدير إحضارهم وقتَ الأمر ليُخاطبوا بالتقريع والتوبيخ، وهو أعظمُ في الإهانة والتحقير، ولو قدِّر القولُ فيه لم يكن هناك التفاتٌ.

وأخرج عبدُ بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن الحسن قال: سألتُ أبا بَرْزة الأسلميّ عن أشدِّ آيةٍ في كتاب الله تعالى على أهل النار؟ فقال: قول الله تعالى: (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)(١).

ووجه الأشديَّة ـ على ما قيل ـ أنَّه تقريعٌ في يوم الفصل، وغضب من أرحم الراحمين، وتأييس لهم، مع ما في «لن» ـ أي: على القول بإفادتها التأبيد ـ من أنَّ ترك الزيادة كالمُحال الذي لا يدخل تحت الصحة.

وقيل: يحتمل أن يكون المرادُ أنَّه أشدُّ حُجَج القرآن على أهل النار، فإنَّه إذا بلغهم في الدنيا هذا الوعيدُ ولم يخافوا منه، فقد قبلوا العذابَ الأبديَّ في مقابلة الكفر، فلا عذرَ لهم يوم القيامة في الحكم عليهم بخلود النار. وفيه من البعد ما فيه.

واستُشكل أمرُ زيادة العذاب بمنافاتها كونَ الجزاء موافقاً للأعمال. وأجيب بأنَّها لحفظ الأصل، إذ لولاها لأَلِفُوا ما أصابهم من العذاب أوَّل مرَّة ولم يتألَّموا به. وهو كما ترى. وقيل: إنَّ العذاب لَمَّا كان للكفر والمعاصي وهي متزايدةٌ في القبح في كلِّ آن، فالكفر مثلاً في الزمان الثاني أقبحُ منه في الزمن الأول وهكذا،

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠٨، وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٥٩ من طريق جسر بن فرقد، عن الحسن، عن أبي برزة موقوفاً، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية بالإسناد المذكور مرفوعاً. قال ابن كثير: جسر بن فرقد ضعيف الحديث بالكلية. اهـ. والحسن لم يسمع من أبي برزة. المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢.

وعَلِمَ اللهُ تعالى منهم ـ لسوء استعدادهم ـ الاستمرارَ على ذلك، اقتضى ذلك زيادةَ العذاب وشدَّته يوماً فيوماً. وقيل: لَمَّا كان كفرُهم أعظمَ كفر اقتضى أشدَّ عذاب، والعذابُ المزاد يوماً فيوماً من أشدِّ العذاب. وقيل غيرُ ذلك، فليتأمَّل.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ شروعٌ في بيان محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء أحوال الكافرين، و«مفازاً» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسم مكان، أي: إنَّ للذين يتقون أعمال[1] الكفرة فوزاً وظفراً بمساعيهم، أو موضعَ فوز. وقيل: نجاةً مما فيه أولئك، أو موضع نجاة.

﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل اشتمال من «مفازاً» على الأول، وبدل البعض على الثاني، والرابطُ مقدَّرٌ، وتقديره: حدائق فيه، أو هي في محلِّه، أو نحو ذلك. وجوِّز أن يكون بدل كلٍّ على الادِّعاء، أو منصوباً بأعني مقدَّراً.

وهو جمع: حديقة، وهي بستان فيها أنواع الشجر المثمر، زاد بعضهم: والرياحين والزهر. وقال الراغب[2]: قطعة من الأرض ذاتُ ماء، سميت بذلك تشبيهاً بحَدَقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها. وكأنَّه أراد: ذاتَ ماء وشجر.

﴿وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾﴾ جمع: عِنَب، ويقال للكَرْم نفسِه ولثمرته، والمتبادر عطفُه على «حدائق» قبلُ، وهو بعضٌ منها إذا أُريد به الكروم وبها الأشجار وموضعُها، وخُصَّ بالذكر اعتناءً به، وأمَّا إنْ أريد به الكروم وبها الموضعُ فقط فلا، ويتعيَّن الاشتمالُ، كما إذا أُريد به ثمرات الكروم، وجُوِّز أن يكون هو ـ وكذا ما بعدُ ـ عطفاً على «مفازاً».

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع: كاعب، وهي المرأة التي تكعَّب ثدياها واستدارا مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سنِّ البلوغ وأحسن الشبوبية[3] ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: لِدَات

(١) في الأصل و(م): أعمل. والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ٩٢ والكلام منه.
(٢) في المفردات (حدق).
(٣) في الأصل و(م): التسوية، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٩.

ينشأن معاً، تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهنَّ معاً على التراب، أي: الأرض. وفي بعض التفاسير: نساءُ الجنة كلُّهن بنات ستَّ عشرة سنة، ورجالُهنَّ أبناءُ ثلاث وثلاثين.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: مترعة، يقال: دَهَقَ فلانٌ الحوضَ وأَدْهَقه، أي: ملأه، وروي عن ابن عباس أنَّه فسَّره بذلك، وأنشد قول الشاعر:

أتانا عامرٌ يبغي قِرانا فأتْرَعْنا له كأساً دِهاقا[1]

وفي «البحر»[2]: الدِّهاق: الملأى، مأخوذٌ من الدَّهْق، وهو ضغطُ الشيء وشدُّه باليد، كأنَّه لامتلائه انضغط. وعن مجاهد وجماعة تفسيرُه بالمتابعة.

وصحَّح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غيرُ واحد أنَّه قال: هي الممتلئة المترعة المتابعة، وربَّما سمعت العباس يقول: يا غلام اسقنا وأدْهِق لنا[3].

وأخرج ابن جرير[4] عن عكرمة أنَّه قال: أي: صافية. ولا يخلو عن كَدَر. والجمهور على الأول.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، وقيل: في الكأس. وجُعلت الفاء للسببية.

﴿لَغْوًا﴾ هو ما لا يعتدُّ به من الكلام، وهو على ما قال الراغب[5]: الذي يُورَد لا عن رَوِيَّة وفِكْر، فيجري مجرى اللَّغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير، وقد يسمَّى كلُّ كلام قبيح لغواً، وكذا ما لا يعتدُّ به مطلقاً.

﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: تكذيباً. وقرئ بالتخفيف[6]، أي: كِذَاباً أو مكاذبةً.

وقد تضمَّنت هذه المذكوراتُ أنواعاً من اللذات الحسيَّة كما لا يخفى.

---

(١) هو لخداش بن زهير كما في الصحاح واللسان (دهق). وجاء فيهما: يرجو، بدل: يبغي.
(٢) ٨/ ٤٠٩.
(٣) مستدرك الحاكم ٢/ ٥١٢، وليس فيه: المترعة.
(٤) في تفسيره ٢٤/ ٤١.
(٥) في المفردات (لغا).
(٦) هي قراءة الكسائي كما في التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ منصوب، بمعنى: إنَّ للمتقين مفازاً، فإنَّه في قوَّة أن يُقال: جازى المتقين بمفاز[1] جزاءً كائناً من ربِّك.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية للإشارة إلى أنَّ ذلك حصل بتربيته[2] وإرشاده تعالى، وإضافةُ الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه ﷺ. وقيل: لم يقل: من ربِّهم؛ لئلَّا يحمله المشركون على أصنامهم. وهو بعيدٌ جدًّا.

ويُعلم مما ذكرنا وجه ترك «من ربِّك» فيما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾. وعدمُ التعرُّض هناك لنسبة الجزاء إليه تعالى بعنوان آخر قيل: من باب: اللهمَّ إنَّ الخيرَ بيديك والشرَّ ليس إليك.

وقوله تعالى: ﴿عَطَآءً﴾ ـ أي: تفضُّلاً وإحساناً منه عزَّ وجل، إذ لا يجب عليه سبحانه شيءٌ ـ بدلٌ من «جزاء»، فمعنى كونه جزاءً أنَّه كذلك بمقتضى وعده جلَّ وعلا، وجوَّز أن يكون نصباً بـ «جزاء» نصبَ المفعول به. وتعقَّبه أبو حيان[3] بأنَّ «جزاء» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، والمصدر المؤكِّد لا يعمل بلا خلاف نعلمه عند النحاة؛ لأنَّه لا ينحلُّ لفعل وحرف مصدريٍّ.

وردَّ بأنَّ ذلك إذا كان الناصب للمفعول المطلق مذكوراً، أمَّا إذا حُذف مطلقاً ففيه خلاف: هل هو العامل أو الفعل؟.

وقال الشهاب[4]: الحقُّ ما قال أبو حيان؛ لأنَّ المذكور هنا هو المصدر المؤكِّدُ لنفسه أو لغيره، والذي اختلف فيه النحاة هو المصدر الآتي بدلاً من اللَّفظ بفعله، كـ:

نَـدْلاً زُرَيْـقُ الـمـالَ نَـدْلَ الـثـعـالـبِ[5]

---

(١) في الأصل و(م): بمفازاً، والمثبت من تفسير أبي السعود ٩/ ٩٢.
(٢) في (م): بترتيبه.
(٣) في البحر ٨/ ٤١٥.
(٤) في الحاشية ٨/ ٣٠٩.
(٥) عجز بيت لأعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩ وصدره:
علـى حيـنَ ألـهـى الـنـاسَ جُـلُّ أُمـورهـم
وهو دون نسبة في الكتاب ١/ ١١٦، والخصائص ١/ ١٢٠، واللسان (ندل). وزريق: قبيلة،

وقوله:

يا قابلَ التَّوبِ غُفراناً مآثم قد أسْلَفْتُها أنا منها خائفٌ وَجِلُ[(١)]

فليعرف.

وقوله تعالى: ﴿حِسَابًا ٣٦﴾ صفةُ «عطاء» بمعنى كافياً، على أنَّه مصدرٌ أُقيم مقام الوصف، أو بُولغ فيه، أو هو على تقدير مضاف. وهو مأخوذٌ من قولهم: أحْسَبَه الشَّيءُ، إذا كفاه حتى قال: حسبي. وقيل: على حسَب أعمالهم، أي: مقسَّطاً على قَدْرِها، وروي ذلك عن مجاهد. وكأن المراد: مقسّطاً بعد التضعيف على ذلك، فيندفع ما قيل: إنَّه غيرُ مناسب لتضعيف الحسنات، ولذا لم يقل: وفاقاً، كما في السابق. ودُفع أيضاً بأنَّ هذا بيانٌ لما هو الأصل لا للجزاء مطلقاً.

وقيل: المعنى: عطاءً مفروغاً عن حسابه لا كَنِعم الدنيا. وتعقِّب بأنَّه بعيدٌ عن اللَّفظ مع ما فيه من الإيهام.

وقرأ ابن قطيب: «حَسّاباً» بفتح الحاء وشدِّ السين[(٢)]، قال ابن جنِّي: بنى فعَّالاً من أفْعَلَ، كدَرَّاكٍ مِن أدْرَكَ[(٣)]. فمعناه: مُحْسِباً، أي: كافياً. ومنع بعضُهم مجيء فَعَّالاً من الإفعال، ودرَّاك من دَرِكَ، فليحرر.

وقرأ شُريح بن يزيد الحمصي وأبو البرهسم بكسر الحاء وشدِّ السين[(٤)]، على أنَّه مصدر ككِذَّاب.

وقرأ ابن عباس: «حَسَناً» بالنون من الحُسن. وحكى المهدويُّ «حَسْبَاً» بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحَّدة[(٥)]، نحو قولك: حسبُك كذا، أي: كافيك.

---

= وندل الثعالب: سرعة الثعالب. وهو يصف قوماً لصُوصاً ـ أو تجّاراً ـ يأتون وقت انشغال الناس بالفتن والحروب فيسرقون.

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في حاشية الشهاب ٨/ ٣٠٩.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٤٩، والبحر ٨/ ٤١٥.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٤٩.

(٤) البحر ٨/ ٤١٥، وفي القراءات الشاذة ص١٦٨: «عِطا حِسَّاناً» قراءة أبي البرهسم.

(٥) البحر ٨/ ٤١٥، وقال في القراءات الشاذة ص١٦٨ عن قراءة ابن عباس: وهي في مصحف عبد الله كذلك.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدلٌ من لفظ «ربِّك»، وفي إبداله تعظيمٌ لا يخفى، وإيماءٌ ـ على ما قيل ـ إلى ما رُوي في كتب الصوفية من الحديث القدسيِّ: «لولاك لما خلقت الأفلاك»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفةٌ لـ «ربِّك»، أو لـ «ربِّ السماوات»، على الأصحِّ عند المحقِّقين من جواز وصف المضاف إلى ذي اللّام بالمعرَّف بها، وجُوِّز أن يكون عطفَ بيان، وهل يكون بدلاً من لفظ «ربك»؟ قال في «البحر»[(٢)]: فيه نظر؛ لأنَّ الظاهر أنَّ البدل لا يتكرَّر.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة، واستقلالِه تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحدٍ قدرةٌ عليه.

والقراءةُ كذلك مرويةٌ عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم[(٣)].

وقرأ الأعرجُ وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحِرْميَّان برفع الاسمين[(٤)]، فقيل: على أنَّهما خبران لمبتدأ مضمَرٍ، أي: هو ربُّ السماوات.. إلخ. وقيل: الأول هو الخبر، والثاني صفةٌ له أو عطف بيان. وقيل: الأول مبتدأ والثاني خبره، و«لا يملكون منه» خبرٌ آخرُ، أو هو الخبر والثاني نعتٌ للأول أو عطف بيان. وقيل: «لا يملكون» حالٌ لازمة. وقيل: الأول مبتدأ أول والثاني مبتدأ ثانٍ، و«لا يملكون» خبرُه، والجملةُ خبرٌ للأول، وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأي مَنْ يقول به. واختير أن يكون كلاهما مرفوعاً على المدح، أو يكون الثاني صفةً للأول، و«لا يملكون» استئنافاً على حاله؛ لما في ذلك من توافق القراءتين معنًى.

---

(١) حديث موضوع، وسلف ١/ ٢١٢.

(٢) ٨/ ٤١٥.

(٣) التيسير ص٢١٩ والنشر ٢/ ٣٩٧ عن ابن عامر وعاصم ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥.

(٤) التيسير ص٢١٩، والنشر ٢/ ٣٩٧ عن الحرميين وأبي عمرو وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥، والحرميان هما: نافع، وابن كثير.

وقرأ الأخوان والحسن وابن وثّاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما بجرِّ الأول ـ على ما سمعتَ ـ ورفعِ الثاني[١] على الابتداء والخبرُ ما بعده، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأ مضمَر وما بعده استئنافٌ، أو خبرٌ ثانٍ.

وضميرُ: «لا يملكون» لأهل السماوات والأرض، و«منه» بيانٌ لـ «خطاباً» مقدَّمٌ عليه، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم ـ كما ينبئ عنه لفظ المِلْك ـ خطاباً مّا في شيءٍ مّا، والمرادُ نفيُ قدرتهم على أن يخاطبوه عزَّ وجلَّ بشيءٍ من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه تعالى على أبلغ وجهٍ وآكده.

وجوِّز أن يكون «منه» صلةَ «يملكون»، و«من» ابتدائية، والمعنى: لا يملكون من الله تعالى خطاباً واحداً، أي: لا يملِّكُهم اللهُ تعالى ذلك، فلا يكون في أيديهم خطابٌ يتصرَّفون فيه تصرُّف الملَّاك فيزيدون في الثواب أو ينقصون من العقاب، وهذا كما تقول: مَلَكت منه درهماً. وهو أقلُّ تكلُّفاً وأظهرُ من جعل «منه» حالاً من «خطاباً» مقدَّماً، وإضمارِ مضافٍ، أي: خطاباً من خطاب الله تعالى، فيكون المعنى: لا يملكون خطاباً واحداً من جملة ما يخاطب به اللهُ تعالى ويأمر به في أمر الثوابِ والعقاب.

وظاهرُ كلام البيضاويِّ[٢] حملُ الخطاب على خطاب الاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب، و«منه» على ما سمعتَ منَّا أولاً، أي: لا يملكون خطابه تعالى والاعتراضَ عليه سبحانه في ثواب أو عقاب؛ لأنَّهم مملوكون له عز وجل على الإطلاق، فلا يستحقُّون عليه سبحانه اعتراضاً أصلاً.

وأيَّاما كان فالآيةُ لا تصلح دليلاً على نفي الشفاعة بإذنه عز وجل. وعن عطاء عن ابن عباس أنَّ ضمير «لا يملكون» للمشركين. وعدمُ الصلاحية عليه أظهرُ.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ قيل: «الروح» خلقٌ أعظم من الملائكة وأشرف منهم، وأقرب من ربِّ العالمين.

---

(١) التيسير ص٢١٩ والنشر ٢/ ٣٩٧ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٨/ ٤١٥، والأخوان هما: حمزة والكسائي.
(٢) في تفسيره ٨/ ٣١٠ (مع حاشية الشهاب).

وقيل: هو مَلَكٌ، ما خلق الله عز وجل بعدَ العرش خلقاً أعظمَ منه، عن ابن عباس أنَّه إذا كان يوم القيامة قام هو وحدَه صفًّا، والملائكةُ صفًّا. وعن الضحاك أنَّه لو فتح فاه لوسع جميعَ الملائكة عليهم السلام.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «الروحُ جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكةً، لهم رؤوسٌ وأيدٍ وأرجلٌ» ـ وفي رواية: «يأكلون الطعام» ـ ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، وقال: هؤلاء جندٌ وهؤلاء جندٌ[1]. وروي القولُ بهذا عن مجاهد وأبي صالح.

وقيل: هم أشراف الملائكة. وقيل: هم حَفَظةُ الملائكة.

وقيل: مَلَكٌ موكَّلٌ على الأرواح. قال في «الإحياء»[2]: المَلَك الذي يقال له: الروح، هو الذي يولج الأرواحَ في الأجسام، فإنَّه يتنفَّس فيكون في كلِّ نَفَس من أنفاسه روحٌ في جسم، وهو حقٌّ يشاهدُه أرباب القلوب ببصائرهم.

وأخرج أبو الشيخ[3] عن الضحاك أنَّه جبريل عليه السلام. وهو قولٌ لابن عباس، فقد أخرج هو عنه أيضاً[4] أنَّه قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام يوم القيامة لقائمٌ بين يدي الجبار ترعدُ فرائصُه فَرَقاً من عذاب الله تعالى، يقول: سبحانك، لا إله إلَّا أنت، ما عبدناكَ حقَّ عبادتك. وإنَّ ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب، أما سمعتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

وفي رواية البيهقي في «الأسماء والصفات»[5] عنه أنَّ المراد به أرواحُ الناس وأنَّ قيامَها مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردَّ إلى الأجساد. وهو خلافُ الظاهر في الآية جدًّا، ولعلَّه لا يصحُّ عن الحَبْر.

---

(١) العظمة (٤١٢)، وعزاه لهم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠٩.

(٢) ٤/ ٢٥٧.

(٣) في العظمة (٤١٦).

(٤) العظمة (٣٦٥).

(٥) برقم (٧٨٤)، وإسناده مسلسل بالضعفاء، كما ذكر ذلك الشيخ أحمد شاكر في حديثه على هذا الإسناد في تعليقه على تفسير الطبري ١/ ٢٦٣ (طبعة المعارف).

وقيل: القرآن، وقيامُه مجازٌ عن ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه. وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع ما لا يخفى. ولم يصحَّ عندي فيه هنا شيءٌ.

و«يوم» ظرف لـ «لا يملكون»، و«صفاً» حالٌ، أي: مصطفِّين. قيل: هما صفَّان؛ الروحُ صفٌّ واحد أو متعدِّدٌ، والملائكة صفٌّ آخرُ، وقيل: صفوفٌ. وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقيل: «يوم يقوم الروحُ والملائكة» الكلُّ صفًّا واحداً.

وجوِّز أن يكون «يوم»[1] ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ بدلٌ من ضمير «لا يتكلمون»، وهو عائدٌ إلى أهل السماوات والأرض الذين من جملتهم الروحُ والملائكة.

وذكرُ قيامهم مصطفِّين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عزَّ وجل، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدارُ الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها.

والجملةُ استئناف مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: «لا يملكون» إلخ ومؤكِّدٌ له، على معنى: إنَّ أهل السماوات والأرض إذا لم يقدروا حينئذٍ أن يتكلَّموا بشيءٍ من جنس الكلام ـ إلا مَنْ أذن الله تعالى له منهم في التكلُّم ـ مطلقاً، وقال ذلك المأذونُ له بعد الإذن في مطلَق التكلُّم قولاً صواباً ـ أي: حقًّا ـ من الشفاعة لمن ارتضى، فكيف يملكون خطابَ ربِّ العزَّة جلَّ جلاله مع كونه أخصَّ من مطلق الكلام وأعزَّ منه مراماً؟

وجوِّز أن يكون ضمير «لا يتكلمون» إلى الروح والملائكة، والكلامُ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: «لا يملكون» إلخ أيضاً، لكن على معنى: إنَّ الروح والملائكة مع كونهم أفضلَ الخلائق وأقرَبهم من الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلَّموا بما هو صوابٌ من الشفاعة لمن ارتضى إلَّا بإذنه، فكيف يملكه غيرُهم؟

وذكره بعض أهل السنّة، فتعقِّب بأنَّه مبنيٌّ على مذهب الاعتزال من كون الملائكة عليهم السلام أفضلَ من البشر مطلقاً، وأنت تعلم أنَّ من أهل السنة أيضاً

(١) لفظة: يوم، ليست في (م).

من ذهب إلى هذا كأبي عبد الله الحليمي[(١)]، والقاضي أبي بكر الباقلانيِّ، والإمام الرازيِّ[(٢)]، ونُسب إلى القاضي البيضاويِّ[(٣)]، وكلامُه في التفسير هنا لا يخلو عن إغلاقٍ، وتصدَّى من تصدَّى لتوجيهه وأطالوا في ذلك.

على أنَّ الخلاف في أفضليَّتهم بمعنى كثرة الثواب وما يترتَّب عليها من كونهم أكرمَ على الله تعالى وأحبَّهم إليه سبحانه، لا بمعنى قرب المنزلة ودخول حظائر القُدس ورفع ستارة الملكوت بالاطِّلاع على ما غاب عنَّا، والمناسبة في النزاهة وقلَّة الوسائط ونحو ذلك، فإنَّهم بهذا الاعتبار أفضلُ بلا خلاف، وكلامُ ذلك البعض يحتمل أن يكونَ مبنيًّا عليه، وهذا كما نشاهده من حال خدَّام الملك وخاصَّة حَرَمِه فإنَّهم أقربُ إليه من وزرائه والخارجين من أقربائه، وليسوا عنده بمرتبةٍ واحدة، وإنْ زادوا في التبسُّط والدَّلال عليه.

وعن ابن عباس أنَّ ضمير «لا يتكلمون» للناس.

وجوِّز أن يكون «إلا من أذن» إلخ منصوباً على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يتكلَّمون إلا في حقِّ شخصٍ أذن له الرحمن، وقال ذلك الشخص في الدنيا صواباً، أي: حقًّا، هو التوحيد وقولُ: لا إله إلَّا الله، كما روي عن ابن عباس وعكرمة، وعليه قيل: يجوز أن يكون «قال صوابا» في موضع الحال من «مَن» بتقدير «قد» أو بدونه، لا عطفاً على «أذن». ومن الناس من جوَّز الحالية على الوجه الأول أيضاً، لكن من ضمير «يتكلمون» باعتبار كلِّ واحدٍ أو باعتبار المجموع، وظن أنَّ قول بعضهم: المعنى: لا يتكلَّمون بالصواب إلَّا بإذنه، لا يتمُّ بدون ذلك. وفيه ما فيه.

وقيل: جملة «لا يتكلمون» حالٌ من «الروح والملائكة» أو من ضميرهم في «صفًّا». والجمهور على ما تقدَّم.

---

(١) ينظر المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٠٩-٣١١.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١/ ٢١٥-٢٣٥.

(٣) ينظر تفسيره ٨/ ٣١٠-٣١١ (مع حاشية الشهاب).

وإظهارُ «الرحمن» في موقع الإضمار للإيذان بأنَّ مناط الإذن هو الرحمةُ البالغة لا أنَّ أحداً يستحقُّه عليه سبحانه وتعالى، كما أنَّ ذكرَه فيما تقدَّم للإشارة إلى أنَّ الرحمة مناط تربيته عز وجل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوِّ درجته وبعد منزلته في الهَوْل والفخامة. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ الموصوف بقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أو هو الخبر و«اليوم» بدل أو عطف بيان، والمراد بالحقِّ الثابتُ المتحقِّقُ، أي: ذلك اليوم الثابتُ الكائن لا محالةَ، والجملة مؤكِّدةٌ لما قبلُ، ولذا لم تعطف.

والفاء في قوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ فصيحةٌ، تفصح عن شرطٍ محذوف، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ دلَّ عليه الجزاء، و«إلى ربه» متعلِّقٌ بـ «مآباً»، قدِّم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل، كأنَّه قيل: وإذا كان الأمر كما ذُكر من تحقُّق الأمر المذكور لا محالةَ، فمن شاء أن يتَّخذ مرجعاً إلى ثواب ربِّه الذي ذكر شأنُه العظيم فَعَلَ ذلك بالإيمان والطاعة.

وقال قتادة فيما رواه عنه عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر[١]: «مآباً» أي: سبيلاً. وتعلّق الجارّ به لِمَا فيه من معنى الإفضاء والإيصال، والأول أظهرُ.

وتقديرُ المضاف ـ أعني: الثواب ـ قيل: لاستحالة الرجوع إلى ذاته عز وجل. وقيل: لأنَّ رجوع كلِّ أحدٍ إلى ربِّه سبحانه ليس بمشيئته، إذ لا بدَّ منه، شاء أم لا، والمعلَّق بالمشيئة الرجوعُ إلى ثوابه تعالى، فإنَّ العبد مختار في الإيمان والطاعة ولا ثواب بدونهما. وقيل: لتقدُّم قوله تعالى: (لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا) فإنَّ لهم مرجعاً تعالى أيضاً لكن للعقاب لا للثواب. ولكلٍّ وجهةٌ.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾ أي: بما ذُكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث بما فيه وما بعده من الدواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن العظيم ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة، وقربُه لتحقُّق إتيانه، فقد قيل: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو

---

(١) عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤٤، وعزاه لهم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

آت. أو لأنه قريبٌ بالنسبة إليه عزَّ وجل، أو يقال: البرزخُ داخلٌ في الآخرة، ومبدؤه الموت، وهو قريب حقيقةً كما لا يخفى على مَن عَرَف القرب والبعد.

وعن قتادة: هو عقوبة الذنب؛ لأنَّه أقربُ العذابين.

وعن مقاتل: هو قتل قريش يومَ بدر. وتعقّب بأنَّه يأباه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فإنَّ الظاهر أنَّه ظرفٌ لمضمر هو صفة «عذاباً» أي: عذاباً كائناً يوم.. إلخ، وليس ذلك اليوم إلَّا يومَ القيامة، وكذا على ما قيل من أنَّه بدلٌ من «عذاباً»، أو ظرف لـ «قريباً»، وعلى هذا الأخير قيل: لا حاجةَ إلى توجيه القرب؛ لأنَّ العذاب في ذلك اليوم قريبٌ لا فاصلَ بينه وبين المرء. ونُظر فيه بأنَّ الظاهر جعل المنذَر به قريباً في وقت الإنذار؛ لأنه المناسبُ للتهديد والوعيد، إذ لا فائدة في ذكر قربه منهم يومَ القيامة، فإذا تعلَّق به فالمرادُ بيانُ قرب اليوم نفسه، فتأمَّل.

والظاهر أنَّ «المرء» عامٌّ للمؤمن والكافر. و«ما» موصولة منصوبة بـ «ينظر»، والعائدُ محذوف، والمراد: يوم يشاهد المكلَّف المؤمن والكافر ما قدَّمه من خير أو شرٍّ. وجوِّز أن تكون «ما» استفهاميةً منصوبة بـ «قدَّمت» أي: ينظر أيَّ شيءٍ قدَّمت يداه. والجملة معلَّق عنها؛ لأنَّ النظر طريق العلم، والكلامُ في قوَّة: ينظر جوابَ ما قدَّمت يداه. وفي الكلام ـ على ما ذكره العلَّامة التفتازاني ـ تغليبُ ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه، حيثُ ذكر اليدان لأنَّ أكثر الأعمال تزاول بهما، فجعل الجميع كالواقع بهما تغليباً.

وقرأ ابن أبي إسحاق «المُرءُ» بضمِّ الميم[1]، وضعَّفها أبو حاتم، ولا ينبغي أن تضعَّف؛ لأنَّها لغةُ بعض العرب يتبعون [الميم][2] حركةَ الهمزة فيقولون: مُرْءٌ، ومَرْأً، ومِرْءٍ على حسب الإعراب.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ تخصيصٌ لأحد الفريقين اللَّذين تناولهما «المرء» فيما قبل منه بالذكر، وخُصَّ قول الكافر دون المؤمن؛ لدلالة قوله

(١) البحر ٨/٤١٦.
(٢) زيادة من البحر ٨/٤١٦ يقتضيها السياق.

على غاية الخيبة ونهاية التحسُّر، ودلالةُ حذف قول المؤمن على غاية التبجُّح ونهاية الفرح والسرور.

وقال عطاء: «المرء» هنا الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ وكان الظاهر عليه الضمير فيما بعد[1]، إلَّا أنَّه وضع الظاهر موضعه؛ لزيادة الذمِّ. وفيه: أنَّ تناول الفريقين هو المطابق لِمَا سبق من وصف يوم الفصل لما اشتمل على حالهما، وهو الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، و«إنا أنذرناكم» لا يخصُّ الكافر؛ لأنَّ الإنذار عامٌّ للفريقين أيضاً، فلا دلالة له[2] على الاختصاص.

وقال ابن عباس وقتادة والحسن: المراد به المؤمن. قال الإمام[3]: دلَّ عليه قول الكافر، فلمَّا كان هذا بياناً لحال الكافر وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن. ولا يخفى ما فيه من الضعف كاستدلال الرياشيِّ بالآية على أنَّ المرء لا يطلق إلَّا على المؤمن.

وأراد الكافر بقوله هذا: ليتني كنت تراباً في الدنيا، فلم أُخلق ولم أكلَّف، أو: ليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أُبعث. وعن ابن عمر وأبي هريرة ومجاهد أنَّ الله تعالى يُحْضِرُ[4] البهائمَ فيقتصُّ لبعضها من بعض، ثم يقول سبحانه لها: كوني تراباً فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكافرُ ذلك تمنَّى مثلَه. وإلى حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ذهب الجمهور، وسيأتي الكلامُ في ذلك في سورة «التكوير» إن شاء الله تعالى.

وقيل: الكافر في الآية إبليس ـ عليه اللَّعنة ـ لَمَّا شاهد آدمَ عليه الصلاة والسلام ونَسْلَه المؤمنين وما لهم من الثواب تمنَّى أن يكون تراباً؛ لأنَّه احتقره لَمَّا قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]. وهو بعيدٌ عن السياق، وإن كان حسناً.

---

(١) أي: عود ضمير لـ «المرء» من غير تصريح به. حاشية الشهاب ٨/ ٣١١.
(٢) لفظ: له، ليس في (م).
(٣) في تفسيره ٣١/ ٢٦.
(٤) في هامش الأصل: يحشر، نسخة.

والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف، والكلامُ على ظاهره وحقيقته. وجوِّز ـ لاسيما على الأخير ـ أن يكون المراد: يقول: ليتني كنت في الدنيا متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جبَّاراً ولا متكبِّراً عليه[1]. والمعوَّل عليه ما تقدَّم كما لا يخفى.

---

(١) لفظ: عليه، ليست في (م).